شرح

أيها الولد

للإمام الغزالي

لمؤلف مجهول

اعتنى بها

محمد هادي الشمرخي الماردينيني

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971

شرح

أيها الولد

للإمام الغزالي

لمؤلف مجهول

اعتنى بها

محمد هادي الشمرخي المارديني

مكتبة سيدا

للطباعة والنشر والتوزيع

ديار بكر - تركيا

[redacted]

مكتبة سيدا
للطباعة والنشر والتوزيع
ديار بكر - تركيا

تلفون : ٠٤١٢٢٢٢٥٤٤٠
جوال : ٠٥٣٧٧٢٤٠٧٨٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، . . . .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(الحمد لله رب العالمين) اقتباس من أول الفاتحة، فلا أفضل منه لكونه من تعليم الله تعالى ولهذا اختاره **(والعاقبة)** أي الحميدة، ولذا يفسر بالجنة والسعادة السرمدية. فحاصله أن الفوز بالسعادة الأبدية في العقبى مختص **(للمتقين)** فغير المتقين ليس لهم شيء من السعادة لكن للتقوى بداية وهو الإسلام، ونهاية وهو حفظ القلب عما سوى الله تعالى وحفظ الجوارح عما لا يليق بالله مراعياً لعزائم جميع حدود الله، فبينهما مراتب، وللسعادة أيضاً مراتب فمن يتشهى بالسعادة في الحشر والرفاقة من المنعم عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين الذين ليس لهم حساب ولا عذاب، يسعى ويجد في تحصيل دقائق التقوى واكتساب أسرار حقائقها إلى أن يتحصل المرتبة الأعلى، ومن يرضَ بمطلق الدخول ولو بعد تعذيب وعقوبات نارية وعتابات إلٰهية، وهو في خطر زوال الإيمان يكتفي بالأدنى من التقوى وهو الإيمان المجرد، وإليه يشير قوله ﷺ: **«ادخلوا الجنة واقتسموها على قدر أعمالكم»** وهذا مفاد من قول أهل الأصول: الحكم بالمشتق يفيد عليه مأخذه إذ المتقين مشتق ومأخذه الاتقاء فهو علة للسعادة.

ثم في هذه الصيغة براعة الاستهلال إذ هو يشير إلى معظم مقاصد هذه النصائح أي الرسالة وهو التقوى، وفي ضمنه إشارة إلى رتبة شرف الرسالة إذ بشرف

والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله أجمعين.

المسائل يتشرف الرسالة وإلى غايته التي هي أشرف الغايات. أي الفوز بالسعادة في الدارين، ويستلزم ذلك الإشارة إلى سبب التصنيف، فينبغي لكل عاقل أريب أن يجتهد في تحصيل جواهرها وتكميل فرائدها. ثم إن عطف هذه الجملة على جملة (الحمد لله) مما يخفى صحته، فلعله إشارة إلى المحمود عليه على معنى (الحمد لله رب العالمين) لجعله العاقبة أي الجنة للمتقين، فمن عطف العلة على المعلول.

(والصلاة والسلام) وهو الأولى خلافاً لما في بعض النسخ من الاكتفاء بالصلاة لأن ذلك الاكتفاء حرام عند البعض ومكروه عند النووي، وهو الظاهر من ظاهر القرآن، يعني ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية 56]، وإن كان المختار ترك الأولى على ما في «جامع الرموز» مع رد النووي، ولأن الاحتياط مع الاتفاق.

(على نبيه محمد) هذا العطف البيان ليس للإيضاح بل للمدح إذ بعضه يكون للمدح كما في «الكشاف» وجه المدح بملاحظة المعنى الوضعي الأصلي عند قصد المعنى العلمي وهو أمر يعتبره العرب **(وآله أجمعين)** لعل وجه التأكيد إما لشمول الآل إلى كل تقي نقيّ إلى يوم القيامة على ما قيل عند استعماله منفرداً، وإما لشمول جميع الأصحاب رد النحو أهل الاعتزال والرفض في تخصيصهم البعض.

ثبت الرسالة

اعلم أن واحداً من الطلبة المتقدمين لازم خدمة الشيخ الإمام زين الدين حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، . . . .

ثبت الرسالة

(**اعلم أن واحداً من الطلبة المتقدمين**) الظاهر أن هذا الكلام إلى آخره من ذلك الطالب هضماً لنفسه بطريق الالتفات أو من الغير، ويحتمل أن يكون من حضرة الشيخ، فعلى هذا احتمالات قرائن الحمد ثم المقصود من تمهيد هذه القصة تحريض المبتدئين وتنبيه المنتهين قدر هذه الرسالة وشرفه حيث إنه حاصل علوم الأولين والآخرين ونتيجة حكمة سيد الأنبياء والمرسلين، ولا يستغني عنه المنتهون الكملة في العلوم الظاهرة بل يفتقر إليه المهرة في العلوم الباطنة فضلاً عن المبتدىء الخالي عن المعارف الإلٰهية والعاري عن أسرار النبوة.

(**لازم**) أي داوم (**خدمة الشيخ**) الظاهر بحسب العلم والعمل، ويحتمل أن يكون بحسب السن أيضاً، فقوله: (**الإمام**) صفة توضيح أو مدح والشيخوخة للعمل والإمامة في العلم لأنه مقتدى الأمة في العلوم نظرية أو عملية أصلية أو فرعية آلية أو قصدية عقليها وشرعيها لأنه له يد طولى إلى أن صار صاحب المذهب في الكل (**زين الدين**) لأن الدين النبويّ يتزين به ويتجمل إما لتأييده أركانه بنصب الحجج والبراهين ودفع الشبه بالأدلة إلى أن يحصل اليقين، أو لكونه مظهر كمالات الدين بغاية التورع والاستقامة ونهاية التقى والرعة على الاستدامة، فقوله: (**حجة الإسلام**) على مقاسات ذلك فهذه ألقاب عرف بها الشيخ أتى بها ترويجاً لنصائحه وترغيباً على جواهر كلماته وإتيان قوله.

(أبي حامد محمد بن محمد الغزالي) لزيادة الإيضاح، وفي بعض الكتب أن

واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع دقائق العلوم واستكمل فضائل النفس.

اسم جده أيضاً محمد، وقد يسمع عن البعض أن اسم محمد من أجداده بالغ إلى سبعة. وفي «شرح القصيدة البردة» للشيخ زاده محشي البيضاوي عن الغزالي أنه قال: سميت أولادي محمداً إلى عهدنا هذا، وذلك أنه تعالى قال لنبيه ﷺ بلسان جبرائيل: «**إني لا أعذب من سمي باسمك بالنار**»، وفي رواية: «**أستحيي أن أعذب بالنار**» ولهذا يتوارث بين عظماء الملة تسمية أبنائهم محمداً بطناً بعد بطن كما في «المواهب اللدنية».

وفيه أيضاً من حديث أنس رضي الله عنه: «يوقف عبدان بين يدي الله تعالى فيأمر بهما إلى الجنة فيقولان: ربنا بم استأهلنا الجنة ولم نعمل عملاً، فيقول الله تعالى: ادخلا الجنة فإني ألزمت على نفسي أن لا أُدخل النار من اسمه أحمد ومحمد». وفيه أيضاً عن علي رضي الله تعالى عنه: «ما من مائدة حضر عليها من اسمه أحمد ومحمد إلا قدَّس الله تعالى ذلك في كل يوم مرتين».

وفي «الدرة المضيئة» عنه عليه السلام: «**من ولد له مولود فسماه محمداً حباً لي وتبركاً بي كان هو ومولوده في الجنة**». وفيه أيضاً عنه عليه السلام: «من ولد له ثلاثة من الولد لم يسم أحدهم محمداً فقد جفاني»، وفيه أيضاً استحباب وجود من اسمه محمد في مشاورة كل أحد للخير في ذلك الأمر لكن في حديث أنس: «سموا أولادكم باسم محمد فإذا سميتموهم محمداً فبرُّوهم وأكرموهم ولا تقبِّحوا لهم وجهاً فإني أشفع لكل من اسمه أحمد ومحمد وأشفع لأمتي كلها»، والبيت إذا كان فيه من اسمه محمد اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وبعد الشيطان، وقالت الملائكة: أكرموا اسم حبيب الله تعالى.

(**واشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه**) أي من الشيخ فإن القراءة تستعمل بعلى الظاهر الاستغراق وإلا فلا يلائم قوله: (**حتى جمع دقائق العلوم**) أي

لطائفه وغرائبه (**واستكمل فضائل النفس**) بالعلم والعمل وتهذيب الأخلاق وتحصيل الملكات الحميدة.

ثم إنه تفكر يوماً في حال نفسه وخطر على باله وقال: إني قرأت أنواعاً من العلوم وصرفت ريعان عمري على تعلُّمها وجمعها والآن ينبغي عليَّ أن أعلم أي نوعها ينفعني غداً ويؤنسني في قبري، وأيها لا ينفعني حتى أتركه كما قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع».

فاستمرت هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله تعالى استفتاء، وسأل عنه مسائل، . . . .

(**ثم إنه تفكر يوماً في حال نفسه**) لأن فكر ساعة خير من عبادة سنة (**وخطر على باله**) هذا ثمرة فكره ونتيجته، والبال هو القلب (**وقال**) أي في قلبه إذ القول كالكلام كما يكون باللسان يكون بالفؤاد أيضاً، بل القول الحقيقي ما في الفؤاد (**إني قرأت أنواعاً**) كثيرة (**من العلوم وصرفت**) بذلت أو تلفت (**ريعان عمري**) حاصله أو قوته (**على تعلُّمها**) أي تعلُّم أنواع العلوم (**وجمعها**) فهماً وإدراكاً وضبطاً (**والآن ينبغي**) أي يجب (**عليَّ أن أعلم أي نوعها ينفعني غداً**) يوم القيامة (**ويؤنسني**) أي يصاحب معي ويدفع وحشتي (**في قبري، وأيها لا ينفعني حتى أتركه**) لأن من العلوم ما لا ينفع صاحبه بل قد يضره (**كما قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»**) ويدخل فيه العلوم المحرمة والممنوعة.

قال في «الأشباه والنظائر»: العلم الفلسفة والشعوذة والتنجيم والرمل وعلوم الطبايعين حرام وأشعار المولدين من الغزل والبطالة مكروه، لعل الحديث أعم لسائر العلوم الزاجرة النافعة إن لم يكن بأغراض حميدة ولم يقارن للعمل بموجبها.

(**فاستمرت**) أي لذلك الطالب (**هذه الفكرة حتى كتب**) إما بمكتوب أن غياباً عنه أو بطريق عرض حال تأدباً له (**إلى حضرة الشيخ**) لعل الحضرة مقحم أتى في مثله للتعظيم إذ معناه الأصلي هو الموجود (**حجة الإسلام محمد الغزالي رحمه الله تعالى**) ولو اكتفى بما قبله لكان أخصر لكنه قصد زيادة التعظيم وأشار إلى

علة الحكم أي الكتابة، تأمل (**استفتاء**) من طلب الفتوى، الظاهر هنا إذ الفتوى الحقيقي إنما هو في الاجتهاديات وفكرته المذكورة ليس منها (**وسأل عنه**) أي الشيخ (**مسائل**) المتبادر من إطلاق المسائل ما يكون في الفرعيات الفقهية فمجاز

والتمس نصيحة ودعاء ليقرأ في أوقاته قال: وإن كان مصنفات الشيخ الإمام كـ«الإحياء» وغيره تشتمل على جواب مسائلي لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي وأعمل بما فيها مدة عمري إن شاء الله تعالى

أيضاً إلا أن يقال: إن جواب جنس ذلك ليس في هذه الرسالة وهو بعيد (**والتمس**) أي طلب منه (**نصيحة ودعاء ليقرأ في أوقاته**) أي أوقات الدعاء أو أوقات الطالب (**قال: وإن كان مصنفات الشيخ الإمام كـ«الإحياء» وغيره**) الظاهر من الغير ما يشتمل جنس مسائله كالتصوف والتفسير والحديث والفقه لا المطلق كالأصول والعربية بل العقلية لغرض محمود كتهافت الحكماء.

اعلم أنه لا بأس علينا أن نذكر فائدة عجيبة وقصة لطيفة في حق الإحياء يظهر بها شرف الشيخ وشأنه العالي ويكون مداراً لرواج الرسالة وهو ما نقل عن تشبيه الأركان للسيوطي عن تقي الدين عن الشيخ عبد الوهاب اليافعي عن والده عن أبي العباس المرسي عن أبي الحسن بن الحرزهم أنه حين نظر «الإحياء» وجد فيه بدعة مخالفة للسنَّة فجمع كتب الإحياء في البلاد بالتماس السلطان ومعاونته وأراد إحراقه بمشاورة الفقهاء، فرأى أبو الحسن في المنام رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والغزالي قائم وبيده كتاب «الإحياء» وقال: انظر يا رسول الله فإن كان فيه بدعة مخالفة لسنّتك كما زعم هذا تبت إلى الله، وإن كان مستحسناً حصل لي من بركاتك فانصفني من خصمي. فأخذ ونظر ورقة ورقة ثم قال: والله إن هذا لشيء حسن. ثم تناوله أبو بكر ونظر كذلك وقال كذلك، ثم عمر كذلك، فأمر رسول الله ﷺ بتجريد أبي الحسن من ثيابه وضربه حد المفتري، فجردوه وضربوه، فاستيقظ من منامه وأعلم أصحابه بما جرى له ولم يزل ألم الضرب مقدار شهر، ثم نظر «الإحياء» فوجده موافقاً للسنَّة خلاف نظره الأول. ولقد مات يوم مات وأثر السياط ظاهر على جسمه. وأورد هذه القصة أيضاً ابن السبكي في «طبقاته» (**تشتمل على جواب مسائلي**) من أن أي علم ينفعني أو لا

السبكي في «طبقاته». (**تشتمل على جواب مسائلي**) من أن أي علم ينفعني أو لا ينفعني على وجه النشر والتفصيل (**لكن مقصودي**) أن يكون لباً ومستصفى سهل الأخذ والمطالعة (**أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي وأعمل بما فيها مدة عمري إن شاء الله تعالى**) فتكون زبدة لطائف الحكمة النبوية

فكتب الشيخ هذه الرسالة في جوابه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اعلم أيها الولد والمحب العزيز أطال الله بقاءك.............

وخلاصة دقائق الشريعة الإلٰهية كافلة لجميع أسرار السنَّة المحمدية حاوية لمزايا السيرة الأحمدية لا يستغني عنها كل رفيع ويضطر إليها كل وضيع (**فكتب الشيخ هذه الرسالة في جوابه**) على وفق سؤاله.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(**اعلم أيها الولد**) التعبير بالولد لكمال الشفقة، وفيه إشارة إلى أن هذه النصائح كأنها صادرة عن الوالد إلى المولود فحري قبولها ولازم استدامتها (**والمحب العزيز**) عطف على الولد وعزَّة المحبة ما يكون حباً لله إذ المتحابون في الله بعضهم على بعض أحب من الوالد والمولود والناس جميعاً لأنهم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القَمَر: الآية 55] وفي عين العلم أن المتحابين في الله على منابر من نور حول العرش ولباسهم نور ووجوههم نور يغبطهم النبيون والشهداء، ففيه إشارة إلى أن قبول هذه النصائح مما يزيد حبهم ويؤكد صفاءهم (**أطال الله بقاءك**) دعاء بأشرف ما يتصور وجوده من العبد إذ لا شيء أعز من العمر فإن الملوك لو صرفوا خزائنهم وغاية جهدهم بجميع أعوانهم وعساكرهم لا يجدون إلى زيادة دقيقته سبيلاً لكن هنا إشكال كلامي بلزوم قيام المعنى بالمعنى إذ البقاء معنى والطول معنى آخر فتأمله.

فإن قيل: كيف يتصور الدعاء بزيادة العمر وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية 34]، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾

[المنافِقون: الآية 11].

قلنا: نعم، لكن في الحديث الصحيح: «**لا يزيد العمر إلا البر**»، وفي آخر: «**البر وحسن الجوار وعمارة الديار وزيادة الأعمال والصدقة ترد البلاء وتزيد العمر**» لعل التأويل الصحيح في الآية إن صح الأجل المعلق كما نقل علي القاري في

بطاعته وسلك بك سبيل أحبائه: إن منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة ﷺ إن كان قد بلغك نصيحة..............................

«شرح الحصن» عن المصنِّف فالأمر ظاهر وإلا اعتبروا النظر إلى المبرم. فالمراد من البقاء والزيادة بقاء شرف الثواب أو الاسم الحسن والأثر. وقيل: إن عدم التأخر في الآية عند مجيء الأجل وأما قبله فيجوز التأخر. وقيل غير ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فَاطِر: الآية 11]، وقوله: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [الرّعد: الآية 39] إلى آخره. نعم إن ذلك بالنظر إلى عمله تعالى مما يمتنع تبدله فلعل جنس ذلك من المتشابه. بقي هنا إشكال آخر كلامي من أن العمر جزء من زمان ليس بموجود عند أهل السنَّة فكيف يتصور الزيادة في المعدوم فتأمله أيضاً ملابساً.

(بطاعته) إذ زيادته إنما يجوز طلبه لأجل الطاعة، ويمكن أن يكون الباء سببية إذ الطاعة سبب لزيادة العمر كما عرفت في الحديث. وفيه تحريض على الطاعة لأنها باعثة على زيادة العمر **(وسلك بك)** الظاهر أن سلك قد يتعدى بالحرف أيضاً وإلا ففي التنزيل ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدَّثِّر: الآية 42] **(سبيل أحبائه)** وسبيلهم هو الصراط المستقيم الذي هو سبيل المنعم عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، وسلوك هذا السبيل يوجب الرّفاقة معهم على ما قال الله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: الآية 69] فهذا الدعاء دعاء بالأشرف عن الجميع وفيه إشارة إلى أن هذا السبيل إنما يحصل بهذه النصائح ففي الحقيقة دعاء بقبول النصائح التي سئل عنها.

(إن منشور) الألطف بالثاء من نثر اللآلئ **(النصيحة)** أي النصائح المنشورة

إلى الأقطار والأقاليم من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها **(يكتب)** ويؤخذ **(من معدن الرسالة ﷺ)** إضافة المعدن من قبيل لجين الماء فكما يخرج من المعدن ذهب وفضة هما رأس كل بضاعة وتجارة ويتوصل بهما إلى تملك إلى كل شيء فحِكَم النبي ونصائحه كذلك بل أعلى وأجّل **(إن كان قد بلغك نصيحة)** فلعل المراد هو جنس النصيحة ويحتمل الوحدة بمعنى إن واحدها كافية فضلاً عن

فأي حاجة لك في نصيحتي وإن لم تبلغك فقل لي: ماذا حصّلت في هذه السنين الماضية.

كثرتها **(فأي حاجة لك في نصيحتي)** فإن نصيحة الأمة لا تكون مثل نصيحة النبي عليه السلام ونصيحتي مأخوذة من نصيحته فكافية ومغنية **(وإن لم تبلغك فقل لي: ماذا حصّلت)** من النصائح النبوية **(في هذه السنين الماضية)** من عمرك فأخبرني مما حصّلته فما أخبره وحصله هو الرسالة لكن يحتمل أن السائل الطالب لم يصل إليه من النصائح النبوية ما يكفيه أو ما يطلبه وإلا فيقتضي أن لا يجاب إليه بإعطاء الرسالة.

الوقت هو الحياة

أيها الولد: من جملة ما نصح به رسول الله ﷺ على أمته قوله عليه السلام: «علامة إعراض الله تعالى عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه، وإن امرأً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له من العبادة جدير أن يطول عليه حسرته، . . . .

الوقت هو الحياة

(**أيها الولد: من جملة ما نصح به رسول الله ﷺ**) هذا بيان وتعداد للنصائح النبوية التي حصله فكأنه جواب عن سؤال التحصيل السابق (**على أمته قوله عليه السلام: «علامة إعراض الله تعالى عن العبد**) لعل المراد من الإعراض عدم الرحمة وعدم استجابة الدعوة ولا ينظر إليه نظر الكرم والإحسان بل يغضب عليه ويهينه ولا يهديه سبيل أحبائه (**اشتغاله**) الظاهر بمعنى الدوام الأكثري فلا يضر الواحد أو الاثنين لا الدوام الكلي (**بما لا يعنيه**) الظاهر من عنى يعني إذا قصد فالمعنى ما لا يتعلق عليه غرض ديني أو دنياوي فحاصله ما لا ينفع ولا يضر فهذا قريب إلى ما يقال من أن الإصرار على المباح صغيرة فحال الاشتغال بما يكون ممنوعاً شرعاً معلوم بمقايسة ذلك بل بطريق الأولوية وفيه إشارة إلى أن من ترك ما لا يعنيه وعمر أوقاته بوظائف العبادات وأنواع الطاعات فيوجه

إليه الرب بقبول الحسنات وعفو السيئات وإجابة الدعوات بأنواع الكرامات.

(**وإن امرأً ذهبت ساعة من عمره**) الظاهر أن التنوين للتقليل أو الوحدة (**في غير ما خلق له من العبادة**) تلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية 56] (**جدير**) أي حري ولائق، وفي بعض النسخ لجدير باللام وأيضاً لو ذهبت بلفظ لو فله وجه (**أن يطول عليه حسرته**) أي ندامته أو خسرانه إما لما يرى من آثار العقوبات أو لما فوت من فرصة الدرجات

ومَن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار» وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

العاليات، وفي الحديث الصحيح: «**ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم ولم يذكروا الله تعالى فيها**» فالعاقل لا يضيع ذرة من أوقاته بتحصيل هواء شهوته.

كتب حكيم إلى أخ له: يا أخي إياك والإخوان الذين يكرمونك بالزيارة ليضيعوا لك يومك فإنك إنما تنال الدنيا والآخرة بيومك فإذا ذهب يومك فقد خسرت الدنيا والآخرة. وقال علي كرم الله وجهه: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته وبكى على خطيئته فكان نفسه في شغل والناس منهم في راحة» كما في «المحاضرات». وفي بعض الكتب: كل نفس من أنفاس الإنسان جوهر لا قيمة له وإذا فات لا عودة له ولا عوض له، وهذا رأس ماله يكتسب السعادة الأبدية فإذا صرفها ثمناً للشقاوة فهو الغبن الفاحش والخسران العظيم رزقكم الله وإيانا بصيرة.

(**ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره على شره فليتجهز إلى النار**») أي لم تكن حسناته أكثر من سيئاته وذلك بالاجتناب من الكبائر وترك الإصرار على الصغائر لأن الصغيرة تكون كبيرة بالإصرار على ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار**». وقد جاء في الأثر: من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شراً من أمسه فهو في نقصان فالموت

خير له.

(**وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم**) أي لمن علم دقائق هذا الحديث وحقائقه إذ كما أشير أنه متكفل لجميع أنواع أحكام الشرع فعلاً وتركاً أو لمن يعلم تفاصيل أحكام الشرع أصولاً وفضائل رخصاً وعزائم.

متى تنفع النصيحة

أيها الولد: النصيحة سهل والمشكل قبولها لأنها في مذاق متبع الهوى مر إذ المناهي محبوبة في قلوبهم على الخصوص من كان طالب العلم الرسمي

متى تنفع النصيحة

أيها الولد: (**النصيحة**) السابقة (**سهل**) كأنه جواب عن استصعاب النصيحة السابقة حيث أشير إلى عدم فوت ساعة واحدة بغير طاعة الله تعالى مع ترك مقتضيات النفس، بل يستوعب أوقاته بأفضل العبادات وأكرم القربات. فحاصل الجواب ما عرفته فاللام في النصيحة للعهد ويمكن أن تكون للجنس، يعني أيها الولد المستنصح مني إنه قد أشكل عندك النصيحة لكن النصيحة ليست بمشكلة بل (**والمشكل قبولها لأنها**) أي النصيحة (**في مذاق**) الظاهر مصدر ميمي بمعنى الذوق (**متبع الهوى مر**) **إذ هي حق والحق مر وما هو مر صعب القبول** (**إذ المناهي**) الظاهر التعميم إلى كل مفضول إلى ترك ما لا بأس به فتأمل (**محبوبة في قلوبهم**) أي قلوب متبع الهوى، فالإضافة للاستغراق فإن النفس لو أرسلت على

حالها ورضي عنها فتجر صاحبها إلى كل معصية وغفلة وشهوة لأن الرضاء عن النفس يوجب تغطية عيوبها ويصيّر سيئاتها حسنة. قال في «عوارف المعارف» شعر:

لقد سفت حية الهوى كبدي   فلا طبيب لها ولا ترياق

(على الخصوص) يعني خصوصاً **(من كان طالب العلم الرسمي)** فإن طباعهم أميل على المناهي من غيرهم لما سيذكره المصنف. لعل المراد من العلم الرسمي ما يكون علماً في الرسم والاسم لا في الحقيقة كالفلسفيات والجدليات وغيرهما مما لا منفعة فيه دينية، ويؤيده ما يشير إليه المصنِّف. ويحتمل أن يراد ما يكون تحصيله على مجرد رسم العادة لا لقصد العمل. وقد قيل: العلم النافع

مشتغل فضل النفس ومناقب الدنيا فإنه يحسب أن العلم المجرد وسيلة سيكون نجاته وخلاصه فيه وإنه مستغن عن العمل، وهذا اعتقاد الفلاسفة. سبحان الله العظيم لا يعلم هذا القدر أنه حين حصل العلم إذا لم يعمل به يكون حجة عليه آكد، كما قال ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه».

في نفسه لا يكون نافعاً بالنسبة إلى صاحبه لعدم عمله بموجبه **(مشتغل فضل النفس)** لعل المراد يشتغل بالعلم لرفعة نفسه بين الأقران **(ومناقب الدنيا)** أي محاسنها والتباهي بحسبها، يعني يقصد بعلمه مجرد محاسن الدنيا **(فإنه يحسب أن العلم المجرد)** عن العمل به **(وسيلة سيكون نجاته وخلاصه فيه)** أي نجاته من حيث الدنيا، وهو الظاهر لأن ما يكون العلم المجرد وسيلة للنجاة ما يكون بحسب الدنيا، وأما ما يكون وسيلة للنجاة الأخروية ما يكون مع عمل **(وإنه مستغن عن العمل)** عطف على قوله: إن العلم، يعني يعتقد الاستغناء عن العمل إذ العمل إنما يحتاج إليه للآخرة وهم لا يعتقدونه وما يعتقدونه هو الدنيا فيكفيه العلم المجرد. لعل المقام من قبيل تنزيل العالم منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب علمه **(وهذا)** أي اعتقاد كفاية العلم المجرد **(اعتقاد الفلاسفة)** لعل المراد الطبيعيون منهم وإلا فهم قسموا الحكمة إلى النظرية والعلمية وادعوا أن استكمال النفس إنما هو بهما.

(سبحان الله العظيم) لأنه شيء غريب وأمر يتعجب منه **(لا يعلم هذا القدر)**

الظاهر إشارة إلى ما بعده من **(أنه)** أي ذلك الطالب **(حين حصل العلم إذا لم يعمل به يكون حجة)** أي حجة الله يوم القيامة **(عليه آكد)** وأقوى. نقل عن «التبصرة» عن معروف الكرخي عن بكر بن خيسل أن في جهنم لوادياً يتعوذ منه جهنم كل يوم سبع مرات وأن في ذلك الوادي لجباً يتعوذ الوادي وجهنم من ذلك الجب كل يوم سبع مرات، وأن في ذلك الجب لحية يتعوذ الجب والوادي وجهنم منها كل يوم سبع مرات، تبدأ بفسقة أهل القرآن فيقولون: أي رب تبدأ بنا قبل عبدة الأوثان، فيقال: ليس من يعلم كمن لا يعلم **(كما قال ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»)** كما روي: ويل للجاهل مرة

وروي أن جنيداً قدّس الله روحه العزيز رُئي في المنام بعد موته فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم، قال: قد طاحت العبارات وفنيت الإشارات ما نفعتنا إلا ركعتان في جوف الليل.

وللعالِم مرتين لأن الجهل قد يصلح عذراً وأن فساد العالم يسري إلى فساد الجهلاء كما قال عمر رضي الله عنه على ما في «التاترخانية»: إذا زل العالم زل بزلته عالم من الخلق. وفيه أيضاً قال يحيى بن معاذ لعلماء الدنيا: يا صاحب العلم قصوركم قيصرية وبيوتكم كسروية وأبوابكم ظاهرية وأحصانكم جالوتية ومواليكم قارونية ومذاهبكم شيطانية فأين المحمدية.

(وروي أن جنيداً قدّس الله روحه العزيز رُئي في المنام بعد موته) فإن قيل: هذا إثبات عدم نفع العلم المجرد وإثبات نفع العمل ولا شك أن المنام لا يزيد ولا يسبق الإلهام والإلهام ليس بشيء من أسباب العلم، قلنا: نعم لكن عن «صحيح البخاري» الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. ويفصل في شرح من «شروح المشارق» على أن ذلك في المطالب القطعية اليقينية والظاهر أن المقام خطابية وأن الإلهام قد يكون حجة إذا لم يقصد به الإلزام سيّما على صاحبه وأنه يجوز أن يكون حجة تامة عند المصنِّف، وإن كان الرؤيا خيالاً باطلاً عند الأشاعرة لأنه لم يجر عادته تعالى بخلق الإدراك في النائم وأما عند الماتريدية فليس خيالاً باطلاً بل هو نوع مشاهدة الروح قد

يشاهد الشيء بحقيقته وقد يشاهد بمثاله. (**فقيل له: ما الخبر يا أبا القاسم، قال: قد طاحت**) أي هلكت (**العبارات**) لعل المراد العلوم الظاهرة كما أن المراد بقوله (**وفنيت الإشارات**) العلوم الباطنة (**ما نفعتنا**) الظاهر النفع التام (**إلا ركعتان**) يحتمل الشخص يعني ركعتين فقط في مدة عمره، ويحتمل الجنس يعني كل ليلة من عمره يأتي ركعتين فقط، ويحتمل أن يكون كناية عن مطلق جنس صلاة الليل وإن كان كثيرةً. ثم الظ من الحصر الإضافي أي بالنسبة إلى الفضائل والعلوم كما يؤيده السياق (**في جوف الليل**) لعدم احتمال الرياء وصدوره بالخشوع ولأتعابه على النفس ولهذا كانت ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية 6] كما سيفصله المص.

متى ينفع العلم

أيها الولد: لا تكن من الأعمال مفلساً ولا تكن من الأحوال خالياً بأن يتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد.

مثاله: لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى، وكان الرجل شجاعاً وأهل الحرب فحمل عليه أسد مهيب. . . . .

متى ينفع العلم

أيها الولد: (**لا تكن من الأعمال مفلساً**) بأن يكون أعمالك بالعلوم الظاهرة قليلاً (**ولا تكن من الأحوال خالياً**) بأن تكون عارياً من علم الباطن فكأنه يقول: اجتهد أن تجمع بين الأعمال الظاهرة والأسرار الباطنة كي تجمع بين الشريعة والحقيقة، وذلك (**بأن يتيقن**) ويعتقد جزماً (**أن العلم المجرد**) أي العلم الخالي عن العمل والتصفية (**لا يأخذ اليد**) لا ينجي صاحبه من المخاوف

ولا يوصله إلى المآرب والمطالب.

(**مثاله**) أي يوضح هذا العقلي بمثالين من المحسوس الخارجي لزيادة الإيضاح، إما بناء على ما اشتهر أن المثالين كالشاهدين أو الأول للأعمال الظاهرة والثاني للأحوال الباطنة، أو الأول بالنسبة إلى فعل المعروفات، والثاني إلى ترك المنكرات (**لو كان على رجل في برية**) أي مفازة وصحراء (**عشرة أسياف**) جمع سيف، والتخصيص بالعشرة لمجرد بيان الكثرة كما أن قوله (**هندية**) لمجرد بيان جيادة السيف وحدته، فلعل أن السيوف الجياد تُنسب إلى الهند (**مع أسلحة**) جمع سلاح (**أخرى، وكان الرجل شجاعاً**) زيادة هذا لا يعرف له فائدة في المثالية إلا أن يراد بالأسلحة إشارة إلى العلوم الظاهرة والشجاعة (**وأهل الحرب**) مثال للعلوم الباطنة والأخلاق (**فحمل عليه أسد مهيب**) مناسب لأن يكون مثالاً

ما ظنك هل تدفع الأسلحة شره منه بلا استعمالها وضربها، ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها لا يفيد إلا بالعمل.

ومثاله: **لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بالسكنجين والكشكاب فلا يصل البرء إلا باستعمالهما**، شعر:

كرمى دو هزار رطل پيمايى   تامى نخورى نباشدت شيدايى

للنفس الأمارة كما قيل: نفسك أسدك إن لم تتوق يأكلك (**ما ظنك**) يعني ليس لك ظن فضلاً عن علم في أنه لا تدفع لك الأسلحة بأنفسها شر ذلك الأسد، وذلك معنى قوله (**هل تدفع الأسلحة شره**) أي شر الأسد (**منه**) أي الرجل المذكور (**بلا استعمالها**) أي الأسلحة (**وضربها، ومن المعلوم**) البديهي (**أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة**) بل كتاب لأنه كناية عن الكثرة (**علمية**) أي شرعية زاجرة نافعة (**وتعلمها**) كأنه عطف تفسير لقرأ (**ولم يعمل بها لا يفيد إلا بالعمل**).

(**ومثاله**) وأيضاً يجوز أن يكون هذا مثالاً من الأنفسي الوجداني والأول مثالاً من الآفاقي الخارجي (**لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه**

... **(لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بالسكنجين والكشكاب)** هما دواءان يتداوى بهما لذلك المرض **(فلا يصل)** أي لا يحصل **(البرء)** أي النجاة والشفاء **(إلا باستعمالهما، شعر:**

كرمى دو هزار رطل پيمايى   تامى نخورى نباشدت شيدايى)

يعني لو كثر عندك الخمر لا تسكرك ما لم تشربها فكذلك وإن كثر علمك لا ينفعك ما لم تعمل به.

فإن قيل: إن المفهوم مما ذكر أن العلم بلا عمل وعبادة ليس له فضل ومنفعة بل زيادة مضرة، والمفهوم من بعض الآثار فضل العالم على العابد كقوله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»، قلنا: لعل المعنى فضل من عبد مع العلم على من يعبد بلا علم بل لا يقال لمن ليس له عمل وخشية عالماً وإن جمع علماً كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: الآية

....

28]، كما قيل وإن العلم ليس في ذاته مقصوداً بل لكونه وسيلة إلى العمل فالعلم بلا عمل ليس بمعتد به شرعاً بل تحصيله إضاعة وقت وكد بلا فائدة كتعذيب حيوان ولذلك إن موسى عليه السلام حين استوصى من الخضر عليه السلام حين المفارقة قال: لا تطلب العلم لتحدث به واطلب لتعمل به، وفي رواية قال موسى عليه السلام: ادع، قال الخضر: يسر الله لك طاعته، كما في رسالة علي القاري في «حياة الخضر». قوله: لتحدث، يعني لا تطلبه لتحدث به فقط بلا عمل أو لتحدث بلا أغراض حميدة وليس معنى التحدث التعليم وإلا ففضل التعليم والتدريس أظهر من أن يخفى. قال في «الفوائح المسكية»: العلم غرس وماؤها درس لكن طلب الثواب بإظهار الصواب لا للمفاخرة ولا للمعصية ولا لهيجان القوة الغضبية.

متى ينفع قراءة العلم

أيها الولد: ولو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعداً ولا مستحقاً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل. . . . .

متى ينفع قراءة العلم

أيها الولد: وفي بعض النسخ ليس ذلك بل وصل قوله: ولو قرأت إلخ إلى ما قبله وهو الظاهر لكمال تقارب ما قبله لما بعده بل هما بحث واحد وهو لزوم العمل إلا أن ما قبله توضيح بالتمثيل وما بعده تثبيت بالدليل النقلي نصاً أو سنَّة، والعقلي وهو يمكن أن يفهم من بيان مفهوم الإيمان أو ما قبله دليل عقلي وما بعده نقلي. وبما ذكر عرفت أن لتوسيط هذا القول وجهاً أيضاً لأنه كبحث آخر ولأنه ويؤذن لكمال اهتمام ما بعده استقلالاً عما قبله

مؤدي تحصيل العلم له بعدم اشتغاله عما قبله.

(**ولو قرأت العلم مائة سنة**) وحصلت فيه قوة تامة (**وجمعت ألف كتاب**) إما بالتأليف أو بالحفظ والملكة الراسخة (**لا تكون مستعداً**) أي متهيئاً (**ولا مستحقاً**) أي لائقاً (**لرحمة الله تعالى**) ورضائه وجزائه بالجنة والسلامة عن المخاوف والمهالك (**إلا بالعمل**) فبالعمل الصالح تستحق الرحمة والجنة. فإن قلت: إذا كان المرء مستحقاً بعمله الرحمة فلزم أن لا يجوز على الله تعالى تعذيب المطيع وهو خلاف مذهب الأشاعرة من أنه يجوز تعذيب المطيع وتنعيم العاصي بل هو مذهب المعتزلة، وأيضاً يقتضي أن يكون الأعمال موجباً للجنة وهو أيضاً ليس مذهباً لأهل السنَّة بل مذهب المعتزلة. قلت: إن جواز التعذيب للمطيع عندهم إنما هو بحسب العقل وأما كلامنا ففي الشرع، وإن الماتريدية منعوا ذلك وإن كان عقلاً لأن تعذيب المطيع وتنعيم العاصي خلاف الحكمة. وإن المراد بالاستحقاق ما هو على مقتضى وعده تعالى وعادته لا على أن يكون حقه الذاتي، نعم في بعض المواضع الأعمال

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: الآية 39]، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: الآية 110]، ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: الآية 14]، ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: الآية 82]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ [الكهف: الآية 107]، ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [مريم: الآية 60].

علة موجبة للجنة عند المعتزلة وسبب عادي عند الماتريدية وتفضل عند الأشاعرة.

ثم أراد أن يثبت كون مدارية النجاة والفوز هو العمل بالكتاب والسنَّة والعقل فقال كقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: الآية 39] لا يخفى أن هذا مبني على أن يكون المراد من السعي العمل الصالح كما يشهد به النص الآخر وإلا فلو جوز شموله للعلم المجرد فلا يصلح له بل يصلح عليه (﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ [الكهف: الآية 110]) أي يطلب (﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: الآية 110]) أي لقاء رحمته ورضائه ورؤيته كما في الجنة (﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: الآية 110]) فدل أن العمل هو الموصل للقاء الله تعالى ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف:

تدل أن العمل هو المدار لتفضله الله تعالى ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ [الأحقاف: الآية 14]، (﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [التوبَة: الآية 82]) أشكل في حاشية التلويح على مثل هذه النصوص لقوله ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**» وورَدَ عن بعض المحققين أن الباء في الآية ليست للسببية كما في الحديث بل للمقابلة المؤذنة عن العوضية فيجوز التخلف إذ المعطي بعوض قد يعطي لا بعوض بخلاف السببية، وأيضاً أن الجنة ميراث الأعمال ظاهراً وإن تفضلا حقيقة. وقيل نفس الدخول تفضلي ونقل المراتب بالأعمال، انتهى ملخصاً فتأمل.

(﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ [الكهف: الآية 107]) فجنة الفردوس مسببة عن مجموع الإيمان والأعمال الصالحة لأنه تقرر في المعاني والأصول أن كون المسند إليه موصولاً قد يكون لإيذان كون صلته علة لخبره (﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [مريَم: الآية 60]) فالإيمان مع العمل الصالح علة مفضية عن الخلاص من الغي الذي اقتضاه صدر الآية.

وقد أثبت في بعض النسخ ثم أراد أن يثبت المطلوب بالسنَّة، أعني مدارية

وما تقول في هذا الحديث: «بني الإسلام على خمس» شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان...........

العمل للنجاة فقال: (**وما تقول في هذا الحديث**) وهو قوله: («**بني الإسلام على خمس**:) الكلام مبني على تشبيه الإسلام على سرير له أركان، فالاستعارة إما تمثيلية أو مكنية والبناء ترشيحية فكما أن السرير وجوده بأركان بحيث لو أُزيل واحد منها لانتفى ماهية السرير إذ الكل ينتفي بانتفاء أحد أجزائه فكذا الإسلام بالنسبة إلى هذه الأجزاء التي هي الأعمال الصالحة، فالأعمال الصالحة عبارة عن الإسلام الذي يمتنع الفوز والظفر بدونه قطعاً.

(**شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله**) فإن قيل: يقتضي ظاهره أن يكون الإسلام الذي هو مرادف للإيمان على الأصح عبارة عن الإقرار مع

سائر الأعمال وهو ليس بمذهب لأحد بل للخوارج والمتقشفة. قلت: لعل المراد بني شرط الإسلام أو كماله أو حجته **(وإقام الصلاة)** والتعبير بالإقامة للإشارة إلى أن المعتبر فيها ما يكون بمراعاة تعديلها بل بإتيان مكملاتها بما يحويها من السنن والآداب **(وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه)** أي إلى الحج **(سبيلاً»)** تمييز من فاعل استطاع.

لا يخفى أن هذا الحديث إنما يدل على مدارية عمل مخصوص وهو ليس بمطلوب، والمطلوب مدارية مطلق العمل وهو ليس بلازم، والخاص لا يستلزم العام بوجه وتخصيص المطلوب بما ذكر ليس بمناسب. نعم إن ذلك فرع كون العمل جزءاً من الإيمان وأُريد من العمل حينئذ ما هو المفروض فقط كما سيشار إن شاء الله تعالى، لكن الظاهر هو المفروض المطلق لا المفروض المخصوص المذكور في الحديث إلا أن يدعى أن ما في الحديث أصول البواقي ومتبوعه.

وقوله: **(والإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان)** أي بالجوارح إشارة إلى الدليل العقلي على أن العمل مدار النجاة، يعني أن العمل

ودليل الأعمال أكثر مما يحصى وإن كان العبد يبلغ الجنة بفضل الله تعالى وكرمه لكن بعد أن يستعد بطاعته وعبادته لأن رحمة الله قريب من المحسنين.

جزء من الإيمان وما يكون جزءاً من الإيمان فمدار للنجاة، فالعمل مدار للنجاة فلا مساغ للإهمال والاغترار على العلم. فقوله: الإيمان آه دليل لصغرى هذا القياس المطوي بكلتي مقدمتيه، ثم ما اختار من أن الإيمان هو مجموع فعل القلب واللسان والجوارح هو مروي عن الشافعي ومذهب المحدثين والمحكي عن أكثر السلف على ما نقل عن الكرماني شرح البخاري.

قيل: ويتبادر من كلام البيضاوي وإلا فالإيمان عبارة عن التصديق فقط مع كون العمل شرطاً على المختار من أهل السنَّة ومع الإقرار ولو مرة وخفية عند أكثر المحققين وأبي حنيفة رحمة الله عليه.

ثم المراد من جزئية العمل من الإيمان ما يكون جزءاً من كماله كجزئية شعر

زيد من زيد وورق الأشجار من أنفس الأشجار كما يشير إليه وإلا فكون العمل جزءاً من حقيقة الإيمان مذهب المعتزلة.

(ودليل الأعمال أكثر مما يحصى) وأما في بعض النسخ مما لا يحصى فليس بصحيح أو محتاج إلى تأويل إذ لا يتصور الأكثرية على ما لا يتناهى. ثم لما ورد أن دخول الجنة إنما هو بفضل الله تعالى لا بالعمل كما هو مذهب الأشعري فأجاب بأنه **(وإن كان العبد يبلغ)** أي يدخل **(الجنة بفضل الله تعالى وكرمه لكن)** الفضل على ما جرى عادته إنما يكون **(بعد أن يستعد)** العبد **(بطاعته وعبادته)** يعني أن الدخول إلى الجنة وإن كان بفضله تعالى لكن كان ذلك الفضل منوطاً بالاستحقاق والاستعداد لذلك الفضل وذلك إنما يكون بالعمل والطاعة وهذا قريب إلى قول أهل المعقول أن الفيضان من الفاعل مشروط بالاستعداد التام من القابل **(لأن رحمة الله قريب من المحسنين)** اقتباس على وجه التعليل، ففيه إشارة إلى الاستدلال بوجهين العقلي والنقلي، يعني أن رحمته إنما هي قريب من المحسنين بالطاعة والعبادة، فالظاهر أن القرب كناية عن الوصول.

ثم لما ورد أن ترك الأعمال لا يزيل الإيمان فما دام الإيمان يدخل الجنة ولو

ولو قيل: العبد يبلغ أيضاً بمجرد الإيمان قلنا: نعم لكن متى يبلغ كم من عقبة تستقبله إلى أن يصل إلى المطلوب، أول تلك العقبات عقبة الإيمان هل يسلم من السلب أم لا يسلم.

وإذا أوصل إلى الجنة يكون جنياً مفلساً.....................

بلا عمل فأشار إليه بقوله: **(ولو قيل: العبد يبلغ)** وفي بعض النسخ هل يبلغ **(أيضاً بمجرد الإيمان)** يعني المقرر عند أهل السنَّة أن العبد يدخل الجنة بمجرد الإيمان بلا عمل، أجاب بقوله: **(قلنا: نعم لكن متى يبلغ)** الظاهر أنه للاستبعاد ولو مجازاً. وقوله: **(كم من عقبة)** إلخ بيان للعبد وكم خبرية للتكثير، والعقبة هنا الأمر الشديد والشيء المهاب والمخاوف. وقوله: كؤودة، قيل هو بمعنى عقبة صعبة **(تستقبله إلى أن يصل إلى المطلوب، أول تلك العقبات عقبة الإيمان)** إما

بمعنى الأول زمانا فإنه عند نزع الروح أو بمعنى المعظم فإنه لا أعظم مصائب
منه عياذاً بالله تعالى **(هل يسلم)** من السلامة **(من السلب)** سيما عند ضعف العقل من شدة سكرات الموت وقد اجتهد الشيطان باذلاً جميع وسعه بأنواع الحيل والتلبيس إلى أن يكون على صورة نحو والد ينصح بدخول غير دين الحق كما نطق به الأحاديث **(أم لا يسلم)** من السلب. وأما العمل فيكون حافظاً للإيمان وحصناً حاجزاً له أي مانعاً للشيطان، وإن للأعمال الظاهرة إعانة قوية في رسوخ الكيفيات النفسانية، فبالعمل يتقرر الإيمان وينتقش فلا يغيره ولا يزيله شر الموسوس وغوائله ويثبته الله تعالى بالقول الثابت.

ثم إنه من أشكال المقام أن من قواعد أهل السنَّة أن الله تعالى يغفر ما دون الكفر لمن يشاء فيجوز الدخول بلا زحمة، وإن بعض صاحب الأعمال الكثيرة قد سلب عنه الإيمان العياذ بالله تعالى كبرصيصا يروى أن تلامذته تطير في الهواء بهمته وأن بعض المؤمنين ولو بلا عمل يكون من أهل الجنة كمن مات في أول الإسلام أو مجنوناً أو صبياً في الإسلام سيما سحرة فرعون. فتأمل حتى يتضح الجواب بلا لزوم ملال الإطناب.

(وإذا أوصل إلى الجنة) ولو بعد العقاب **(يكون جنياً مفلساً)** والمفلس لا

لما قال الحسن البصري: يقول الله تعالى يوم القيامة: ادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بقدر أعمالكم.

يشتري منزلة رفيقه في الجنة **(لما قال الحسن البصري)** لعل هذا حديث مقطوع وإلا فمثل تلك المطالب لا تنال بالرأي **(يقول الله تعالى يوم القيامة: ادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بقدر أعمالكم)** فإذا لم يكن عمل فبأي شيء يقتسم، ففيه إشارة إلى ما سبق أن الدخول بفضل الله تعالى والرفعة بسبب الأعمال من مذهب البعض.

قبول العمل

أيها الولد: ما لم تعمل لم تجد الأجر.

حكاية: إن رجلاً في بني إسرائيل عبد الله تعالى سبعين سنة فأراد الله تعالى أن يجلوه على الملائكة، فأرسل الله تعالى ملكاً يخبره أنه مع تلك العبادة الكثيرة لا يليق بك الجنة.

أيها الولد: أعاد الخطاب وإن كان ما بعده من جنس ما قبله إشارة إلى زيادة اعتنائه بالعمل واهتمامه **(ما لم تعمل)** الصالحات **(لم تجد الأجر)** أي الثواب كالجنة، يعني أن الجنة وإن كانت بفضله تعالى كما هو مذهب المص لكن جرى عادته تعالى بمناطية العمل للجنة. فتأمل بما سبق حتى يزول من الشبهة ما سبق. ثم الظاهر من مقصود ما سيذكره من الحكاية أن يكون التعبير بنحو أن يقال: إن عملت لا تحرم من الأجر ولا تنفك عنه.

(حكاية) أي هذه حكاية دالة على ما ذكرنا وهي **(أن رجلاً في بني إسرائيل)** من الأمم السالفة **(عبدَ الله تعالى سبعين سنة فأراد الله تعالى أن يجلوه)** أي يظهره **(على الملائكة)** إما على جميعها كما هو المتبادر من الجمعية مع اللام أو طائفة منهم، وفائدة الإظهار إما لإيذان شرف العابد ورتبته وصدق رغبته على العبادة وقوة اعتماده على ربه حيث لا ينفك عن وظيفته مع حصول يأس منفعته أو لإفادة أن العمل يؤثر في تبديل الشقاوة بالسعادة أو للتباهي على الملائكة فافهم.

(فأرسل الله تعالى ملكاً) قوله **(يخبره)** صفة ملكاً بمعنى ليخبره أي ليخبر الملك ذلك العابد **(أنه)** أي إنك أيها العابد **(مع تلك العبادة الكثيرة لا يليق بك)** الأجر و**(الجنة)** حاصله وإن أكثرت العبادة ليس لك فيها نفع لكن يشكل إما

فلما بلغه قال العابد: نحن خُلقنا للعبادة فينبغي لنا أن نعبده. فلما رجع الملك قال: إلٰهي أنت أعلم بما قال فقال الله تعالى: «إذا هو لم يعرض عن عبادتنا فنحن مع الكرم لا نعرض عنه اشهدوا يا ملائكتي إني قد غفرت له».

بلزوم كذب الملك أو عدم نفع العبادة، والمقام في نفعها إلا أن يقال مراد الملك أن عملك ليس موجباً لك الأجر وإن كان سبباً عادياً للأجر بل الأجر إنما هو بالفضل.

(فلما بلغه) من التبليغ **(قال العابد: نحن خُلقنا للعبادة)** كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية 56] **(فينبغي لنا أن نعبده)** أي الله، هذا قريب أن يكون جواباً على طريق أسلوب الحكيم في عل

أي الله تعالى قريب أن يكون جواباً على طريق أسلوب الحكيم في علم المعاني، يعني لم يجعل الله عبادتنا إياه مشروطة بلياقة الأجر بل أمرنا على الإطلاق ولم يأمر بشيء غير العبادة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البيّنة: الآية 5] فليس لنا في جميع الأحوال شيء غير العبادة.

(**فلما رجع الملك**) إلى الله تعالى لكن بلا كيف ولا جهة ولا مكان (**قال: إلٰهي أنت أعلم بما قال**) أي العابد (**فقال الله تعالى**: «**إذا هو لم يعرض عن عبادتنا**) لعل الظاهر بمعنى إذا لم يعرض العابد بإذا الشرطية ويمكن أن يكون إذن بالنون لا بالألف بمعنى تأكيد جواب مرتبط بمقدم أو منبه على سبب حصل في الحال فليس بعامل فيدخل الاسمية كما في قولك: إذن أنا أكرمك، فهذا وإن كان قريباً من حيث المعنى لكن كتابة عامة النسخ بالألف يبعده (**فنحن**) بعظمة شأننا (**مع الكرم**) أي مع كوننا صاحب كرم، والكرم يقتضي الإحسان والغفران (**لا نعرض عنه**) بل نقبله بأنواع العطايا والإنعام (**اشهدوا يا ملائكتي إني قد غفرت له**) الإشهاد على نهج الشرع الذي وضعه الله تعالى أو لكمال إيقان نفع العبادة وإلا فلا حاجة إلى الإشهاد في وعد من لا يخلف الميعاد ولا يغيب شيء من علمه.

فالذي حصل من هذه الحكاية أن الإصرار على العبادة كان سبباً للنجاة بل كان داعياً إلى محو الشقاوة والتثبيت بالسعادة لكن يرد أن ذلك ليس من العمل بل من صدق العقيدة. أقول ذلك ليس بقطعي غايته المدخلية وذا لا ينافي مدخلية

وقال رسول الله ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا قبل أن توزنوا».

وقال علي رضي الله عنه: من ظن أنه بدون الجهد يصل إلى الجنة فهو ممتن ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو متمنٍّ.

العبادة، ثم هذا وإن وافق مذهب الماتريدية من أن السعيد قد يشقى والشقي قد يسعد لكن لا يوافق مذهب الأشاعرة من أن السعيد سعيد أبداً والشقي شقي أبداً فافهم.

قال في الطريقة المحمدية في آخر حيل الشيطان في الطاعة: يقول الشيطان

آخراً: إن خلقت سعيداً فلا يضرك ترك العمل وإن شقياً فلا ينفعك الجد في العمل. وأجاب من جانب نفسه: أنا عبد فليس للعبد إلا امتثال أمر مولاه وإني وإن كنت شقياً أحوج إلى العمل لئلا ألوم نفسي على أنه تعالى لا يعاقبني على الطاعة البتة على أن دخول النار بالعبادة أحب إليَّ من الدخول بالشقاوة، وإنه تعالى لا يخلف وعده وقد وعد بالثواب على الطاعة فمن لقى الله تعالى على الإيمان والطاعة لن يدخل النار البتة، وإنه مسبب الأسباب وربط الأشياء بالأسباب الظاهرة كالغيث للنبات، انتهى ملخصاً.

حكاية أخرى: قال رجل لعابد في مكة: إني رأيتك في اللوح شقياً، قال العابد: إني رأيته منذ أربعين سنة لكنا خلقنا للعبادة فليس لنا إلا العبادة.

(**وقال رسول الله ﷺ: «حاسبوا أنفسكم**) أي بزيادة الصالحات وإلا فلا يظهر فائدة الاحتجاج بالحديث بالنسبة إلى مدارية العمل بالأجر فهذا في الدنيا (**قبل أن تحاسبوا**) في الآخرة (**وزنوا قبل أن توزنوا» وقال علي رضي الله عنه: من ظن**) أي اعتقد (**أنه بدون الجهد**) أي المجاهدة في العمل (**يصل إلى الجنة**) ولقاء ربه (**فهو ممتن**) أي مقطوع ليس بواصل كما فهم من «القاموس» وقد يفسر فهو في خسران وأحمق إذ الوصول إنما هو بالمجاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكبوت: الآية 69] (**ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل فهو متمنٍّ**) أي متعب في العمل يعني يلزم عليه تحمل أتعاب ومشقة في العمل.

قال الحسن رحمة الله عليه: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب وقال ـ أي الحسن ـ: علم الحقيقة ترك ملاحظة ثواب العمل لا ترك العمل.

وقال رسول الله ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

(**قال الحسن رحمة الله عليه: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب**) غير تركه يعني كما أن ترك العمل ذنب فكذا الطلب بدونه (**وقال ـ أي الحسن ـ: علم الحقيقة**) يعني العلم الحقيقي (**ترك ملاحظة ثواب العمل**) (**لا ترك العمل**)

يعني أن العابد لا يترك العبادة وإن ترك ثوابها كما عرفت في مقصود الحكاية السابقة. وفي بعض النسخ وقال عالم الحقيقة فيكون لفظ عالم فاعل قال: ويكون مقول القول قوله من ترك ملاحظة العمل أي ثوابه لا يترك العمل.

(**وقال رسول الله** ﷺ: «**الكيس**) أي صاحب العقل (**من دان**) من الدناءة أي يجعل (**نفسه**) حقيراً (**وعمل لما بعد الموت**) من الحشر والصراط والميزان والحساب وغيرها ومجموعها يكون بعد الموت الموجبة العادية للجنة (**والأحمق من أتبع نفسه هواها**) أي هوى النفس (**وتمنى**) أي يرجو (**على الله**) أي من الله (**الأماني**») لأن مجرد التمني بلا عمل كَتَمَنٍّ محال قال في «عوارف المعارف»: النفوس مجبولة على سوء الأدب والعبد مأمور بحفظ الأدب والنفس تجري بطباعها في ميدان المخالفة والعبد يردها بجد إلى حسن المطالبة فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ومهما أعانها فهو شريكها.

طهارة النية

أيها الولد: كم من ليال أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم لا أعلم ما كان الباعث فيه إن كان نيتك غرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك ثم ويل لك. . . .

طهارة النية

أيها الولد: لا يخفى أن هذا متصل معنى إلى قوله، وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد فلو اتصله لفظاً لكان أحسن (**كم من ليال**) لفظ كم خبرية للتكثير أي ليال كثيرة (**أحييتها**) من الإحياء فالليالي في أنفسها كالموات وإشغالها بالطاعات كالروح فالليلة المعمورة بالطاعات كالحي لكن لا بد من اعتبار تمحل يظهر وجهه من قوله فويل لك اهـ (**بتكرار العلم**) أي بمطالعة كتب العلم فقوله: (**ومطالعة الكتب**) عطف تفسير (**وحرمت على نفسك النوم**) لقوة السعي والمجاهدة فيه (**لا أعلم ما كان الباعث فيه**) أي في تكرار العلم (**إن كان نيتك غرض الدنيا وجذب**) أي جر (**حطامها**) أي فوائدها ومنابعها (**وتحصيل مناصبها والمباهاة**) أي التفاخر والتعلي (**على الأقران والأمثال، فويل**) أي الحسرة العظيمة والندامة المديدة بل العقوبة الشديدة (**لك**) مختص لك لأنك لا تنال بمجاهدتك هذه شيئاً معتداً به بل تنال عذاباً وعقوبة لفكك العلم عن الموضوع له الأصلي وجعلته آلة ووسيلة إلى المعاصي وهو موضوع ليكون آلة لذخر الآخرة ونيل الدرجات العلية (**ثم ويل لك**) تأكيد للإنذار على ﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ: الآيتان 4-5]، وفي إتيان ثم إشارة إلى أن الثاني أبلغ من الأول لعل الأول ما في الدنيا والثاني ما في الآخرة، أو الأول لأصل مطالعة الكتب والثاني لتكراره، أو الأول لجذب حطام الدنيا والثاني للمباهاة على الأقران.

وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي عليه السلام وتهذيب أخلاقك وكسر النفس الأمارة بالسوء فطوبى لك ثم طوبى لك، وقد صدق من قال شعر:

سهر العيون لغير وجهك ضائع ... وبكاؤهن لغير فقدك باطل

(**وإن كان قصدك فيه**) أي في تكرار العلم والإتعاب فيه (**إحياء شريعة النبي عليه السلام**) بالتدريس والتعليم وبالعظة والتذكير والإفتاء بل بالقضاء بالأغراض الحميدة إلى أن ترقى إلى رتبة الوراثة النبوية كما في «جامع الصغير» عن أنس

رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة»، **(وتهذيب أخلاقك)** أي تطهير أخلاقك من الرذائل الدنية والملكات الردية الذميمة وذلك بالتخلق بالأخلاق الحميدة **(وكسر النفس الأمارة)** أي إذا خلى على حالها وطبعها تأمر صاحبها **(بالسوء فطوبى)** أي العاقبة الحميدة والفوز الأبدي والسعادة السرمدية مختص **(لك ثم طوبى لك)** يعني أعلى من الأولى فالأول في الدنيا والثاني في الآخرة أو الأول لإحياء الشريعة والثاني لتهذيب الأخلاق يعني أحدهما لتكميل نفسه والآخر لإكمال غيره، أو الأول نعم الجنان والثاني لقاء الرحمٰن، أو الأول دخول الجنة والثاني دخوله بلا حساب، أو الأول دخول الجنة والثاني دخوله بلا حساب، أو الأول خلاص نفسه والثاني تخليص الغير بالشفاعة إذ للعلماء العاملين حظ عظيم في مقام شفاعة الشافعين إذ ليس للإحسان جزاء إلا الإحسان.

ثم استشهد لذلك شعراً وقال: **(وقد صدق من قال شعر: سهر العيون)** أي اليقظان **(لغير وجهك)** لغير تحصيل رضائك **(ضائع)** بل خاسر **(وبكاؤهن)** أي العيون **(لغير فقدك)** أي لغير فقد طريقك أو شريعتك أو لأجل غير فقد لقائك **(باطل)** لا صحة له ولا نفع بل البكاء النافع ما يكون لفقده تعالى فتحصيل العلوم في غير رضائه تعالى كما في غرض الدنيا ضائع يعني إفناء عمر وتضييع وقت ليس له فائدة كتعذيب الحيوان وكل كد وزحمة في تكريره وجمعه هباء ووزر وبال إذ له الويل لكونه من علماء السوء. وروي: ويل للجاهل مرة وللعالم

أيها الولد: عش ما شئت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾، . . . .

مرتين. وفسر الويل في حديث «الجامع الصغير» من قوله عليه السلام: «**ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره**». وفيه أيضاً عن كعب ابن مالك: من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله تعالى النار. وإنما زيد عقوبتهم لأنهم يزيدون للجهلاء جهلاً وفجوراً وتقسي قلوب المؤمنين ولذا قيل: إذا عز عالم عز عالم

وإذا ذلّ عالم ذلّ عالم. وأما فضائل العالم الصالح فمما لا يحيطها البيان بل يعجز عنها الأقلام ويتحير عند بحار فضائله الأفهام.

أيها الولد: (عش ما شئت) أمر من العيش بمعنى الحياة لعله أمر تهديدي كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فُصّلَت: الآية 40] ففيه تخويف عن طلب الحياة لأنها ليست بحقيقية بل استعارة ومجازية لأنها تزول سريعاً وتنعدم قريباً لأن الكل بصدد الموت وفي عداد الموتى كما قيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمَر: الآية 30] ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت دون اسم الفاعل وبما ذكر عرفت معنى قوله: (﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾) يعني أي زمان كثير ووقت مديد طويل رجوت فيه الحياة ووصلت إليه مع أنه وهمي فأنت من الموتى ومن كان من الموتى يقنع بما يكتفى به للميت بدون ادخار شيء ولا يميل إلى جذب الدنيا ولا يضيع عمره الذي لم يعط له شيء أعز منه في حطامها كالذي يحصل العلم بمباهلتها وإعراضها كما قال بعضهم: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية 26]، وآخر لباس الإنسان الأكفان، فاعتبروا يا أولي الألباب، واسلكوا سبيل الحكمة والصواب، ولا تركنوا إلى الدنيا، فإن الخلود فيها محال، والاعتماد عليها ضلال، سلابة للنعم أكالة للأمم، لذتها قليلة وحسرتها طويلة، أين قياصرة القصور، أين هرامسة الدهور، أين شداد الذي رفع العماد أين تبع وعاد أين الآباء والأجداد، لو بقي ساكنها ما خربت مساكنها.

وفي نصائح بعض الحكماء:

كلِ القوت والزم السكوت ... وعلل النفس بأنها تموت

واحبب ما شئت فإنك مفارق، . . . .

وذكرها بين يدي ... الحي الذي لا يموت

وقال بعضهم:

ولا تعمر مكاناً لست فيه ... فرب الدار ليس له مكان

فأصبح أهلها غروراً وجمعهم ... ثبوراً ومساكنهم قبورا

فأين من ضاق بهم القصر وراق لهم العصر

قيل: كتب على قبر أبي حنيفة رحمه الله تعالى شعر:

يا واقفاً بقبري متفكراً بأمري بالأمس كنت مثلك غداً تصير مثلي

وروي أن داود عليه السلام رأي في غار حجراً على رأس قبر مكتوب فيه: ملكت ألف سنة وفتحت ألف مدينة وهزمت ألف جيش وفضضت ألف بكر ثم صرت إلى ما ترى من سكان الثرى، شعر:

فإن كنت لا تدري متى تموت فاعلمن بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

(واحبب ما شئت) النساء والأولاد والأموال والمناصب والمراتب وافن عمرك في هويها وافد الباقيات الصالحات التي تبقى ثمراتها أبد الآباد، وتوصل أصحابها إلى رفع الدرجات في الجنات العاليات بظلمات عوائق الجسمانية وكدورات عوائق الهيولانية **(فإنك مفارق)** عن كلها لأن يد الإنسان في الكل يد أمانة وعارية لا ملك له، أو المعنى إن شئت أحببت متاع الدنيا وإن شئت أحببت ذخر الآخرة فإنك مفارق عن متاع الدنيا وينتقل ما جمعت إلى الغير وتبقى بحسابه بل بعذابه صفر اليد فتكون أسير الغير ومن يحب الآخرة يختار ما يبقى على ما يفنى، هذا على نظير قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: الآية 29] الآيات في الكهف. كما قال بعضهم: ما أكله الإنسان فقد أفناه، وما لبسه فقد أبلاه، وما علمه وعمله فقد أبقاه، وإن الدنيا إقبالها منوطة بإدبارها ورأينا التوجه إلى الله تعالى حتماً مقضياً وفراق الأحبة وعداً مأتياً، وإن الدنيا دار محنة ومشقة وفراق، والآخرة دار سرور ولقاء وتلاق.

واعمل ما شئت فإنك مجزي به.

فطوبى لمن كان يومه يوم التلاق وويل لمن كان يومه يوم الفراق

وإن الدنيا دار بلاء وفناء وعبور لا دار بقاء ودوام وسرور، أولها ضعف وفتور وآخرها موت وقبور.

(واعمل ما شئت) من اتباع الهوى والاشتغال بحظ النفس أو اتباع سيد المرسلين وتكميل سنّته وإحياء شريعته. قال بعض فيما كتبه إلى بعض أصحابه: الهمم ثلاث: همة أبناء الدنيا دنياهم، وهمة أهل الآخرة أخراهم، وخديم الدنيا أسير، وخديم الآخرة أجير، وخديم الحق أمير. نسأل الله أن يعصمنا عن هفوة الشكوك والميل في غيره في كل أمر وساعة ولا لنا سوى الله في الخلق من بديل ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القَصَص: الآية 28].

(فإنك مجزي به) إن خيراً فخير وإن شراً فشر فمن شاء فليعمل الصالحات وليصل إلى الجنات العاليات ومن شاء فليعمل السيئات وليصل إلى نيران الدركات.

ماذا تتعلم

أيها الولد: فأي شيء حاصل لك من تحصيل علم الكلام والخلاف. . . . .

ماذا تتعلم

أيها الولد: ثم أراد أن يبين العلوم التي لا نفع في تحصيلها فقال: **(فأي شيء حاصل لك)** الظاهر الاستفهام الإنكاري أي لا يحصل لك نفع **(من تحصيل علم الكلام)** فإن قيل كون الكلام ممنوعاً وإن كان موافقاً لما في نحو الدرر من الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال: لأن يلقى الله تعالى عبد بأكبر الكبائر خير من أن يلقاه بعلم الكلام. فإذا كان حال الكلام في زمانهم هكذا فما ظنك بالكلام المخلوط بهذيانات الفلاسفة المغمورة بأباطيلهم المزخرفة انتهى. ولما في غيره من منع أبي حنيفة وكذا أبي يوسف رحمهما الله تعالى لكنه مخالف لما في «التاترخانية» و«البزازية» واختاره في الطريقة المحمدية من أنه واجب على الكفاية بل المص نفسه أشار إلى جوازه في «المنقذ من الضلال». قلنا: المنع محمول على وراء الحاجة أو على أنه لتخجيل الخصم وتغليطه كما في «البزازية» أو للخلط بالفلسفيات كما فيه أيضاً، وأشير في «الدرر» بل نقل عن «الإحياء» كونه من فروض الكفاية إن خصص بما هو المقاصد الكلامية مع أدلتها وما هو مجمع بين أهل السنة، وأما مبادئه فمن استقصاء الكلام كما نقل عن المص، وأما الفروق بين الأشاعرة والماتريدية فقيل من المندوبات.

(والخلاف) هذا إما علم يعرف به تفاصيل خلاف المتكلمين أو الفقهاء أو علم الميزان أو علم المناظرة. الأولى يعني مجادلة الفرق الضالة بل الفلاسفة ممنوعة في نفسها والاشتغال بردهم ليس بمفيد لأنهم لا يلزمون بذلك لمجبولية طباعهم على التعنت فلا يفيد شيئاً سوى تشهير مذاهبهم كما نقل عن بعض

والطب. . . . .

السلف لكن نقل عن المص أن ذلك فرض عند الخوف من الزيغ في عقائد أهل السنة

السنة.

وأما خلاف الفقهاء فلعله من المندوبات لما في الفتاوى النظر في كتب أصحابنا خير من قيام الليل وإن كان بلا سماع ومن قراءة القرآن بل من صلاة التسبيح التي هي أفضل النوافل لأن كل مجتهد متساو وفي الصواب أو الخطأ في نفسه.

وأما علم الميزان فأشار إليه المصنف في «المنقذ» أنه في نفسه جائز بل لازم وإنما الآفة بإهماله في العلوم الدينية، فالمنع من المنطق مبني على نحو هذا وقد قال علي القاري في «شرح حديث الأربعين» عن السيوطي إنه يحرم علوم الفلاسفة كالمنطق بإجماع السلف وأكثر المعتبرين كابن الصلاح والنووي وجمعت في تحريمه كتاباً نقلت فيه نصوص الأئمة، والغزالي رجع إلى تحريمه بعد ثناء عليه في أول «المنتقى» وجزم السلفي عن أصحابنا وابن الرشيد من المالكية بأن المشتغل به لا تقبل روايته انتهى. لكن السيوطي في «الإتقان» صحح أن القرآن مشتمل على الحجج المنطقية والقواعد الجدلية لكن على طريق الإشارة لا الصراحة لعدم شهرة ذلك عند نزول القرآن الذي نزل على لسانهم فالمنع والتحريم ليس على إطلاقه.

وأما علم المناظرة فلعله عند عدم الحاجة والضرورة وإلا فنقل عن المص جواز الاشتغال بمجادلات الفرق عند مس الحاجة كيف وهو جزء من علم الأصول وهو مما يحتاج إليه على الإطلاق كالفقه. وقال البزازي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: الآية 83] إشارة إلى مناظرة إبراهيم عليه السلام ودل كونه من حجج الله مضيفاً إلى نفسه على قدر شرفه.

(والطب) قال في «التاترخانية» إنه من فروض الكفاية والتعمق فيه ليس بواجب بل فيه زيادة قدرة على الكفاية. وعن الشافعي في بعض شروح «السراجية»: العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان، وإن حكم بوضعه عند كونه حديثاً كما في «الخلاصة». قال بعضهم: إن الطب فرض كفاية عند الغزالي

والدواوين، والأشعار، والنجوم، والعروض، والنحو، والتصريف. . . . . . .

ويستحب عند الجمهور فالمنع هنا ليس مما يعول عليه على إطلاقه إلا أن يحمل

على أن الاشتغال بالمفضول عند إمكان الأفضل من قبيل ما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين وإن مثله من الكفاية عند إقامة الغير مما يعد من تضييع العمر ولهذا لم يشتهر عمله من علماء الدين مع حرصهم على درك الفضائل.

(**والدواوين**) جمع ديوان (**والأشعار**) لعلّهما متحدان وإن فهم التغاير عن كلام بعض (**والنجوم**) قال في التاترخانية: وأما علم الشعر والنيرنجات والطلسمات ونحوها فهي غير محمودة، روي عنه عليه السلام في حق أبيات العرب: «**علم لا ينفع وجهل لا يضر**». وعد في «الأشباه» أشعار المولدين من الغزل والبطالة من المكروه والأشعار التي لا سخف فيها من المباح والتنجيم من الحرام كالفلسفة. وفي بعض الرسالة عن «الأشباه» عد الأشعار التي تنبىء عن سخافة العقل كالتي تتعلق بعشق النساء من الحرام لكن عن القشيري في التي قصد بها التمثيلات كما في بعض السالكين بجوازها، وفي قاضيخان في التي ذكر فيها الفسق كالخمر والغلام بالكراهة وعلل بأنه من الفواحش وعن بعض الكتب إن كان بطريق الاستدلال كاستدلال الطبيب بالنبض بقضائه تعالى فجائز وإن لا بقضائه تعالى أو بدعوى علم الغيب فكفر (**والعروض**) لعل حاله مثل حال الشعر بل أشنع (**والنحو والتصريف**) لعل المراد منهما بل من الكل الإفراط في الاشتغال على وجه يعطل الأهم من العلوم والعبادات وراء الحاجات وإلا فلكون القرآن عربياً يتوقف الوقوف على معانيه عليهما فكيف يتصور المنع من علم يتوقف عليه القرآن والحديث. قال ابن حجر في شرح الأربعين: وجب كون المنطق علماً شرعياً إذ هو ما صدر من الشارع أو توقف عليه الصادر من الشارع توقف وجود كعلم الكلام أو توقف كمال كعلم النحو والمنطق انتهى.

وبالجملة إن المنع في أكثر هذه العلوم كترك العزيمة والقناعة بالرخصة والمتصوفة جعلوا الرخص كالحرام بلا ضرورة والاعتصام بالعزائم كالفروض والواجبات فافهم ذلك.

غير تضييع العمر بجلال ذي الجلال.

إني رأيت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: من ساعة أن يوضع

الميت على الجنازة إلى أن يوضع شفير القبر يسأل الله تعالى بعظمته منه أربعين سؤالاً أول ما يقول الله تعالى: عبد طهرت منظر الخلق سنين.........

وفي «شرح الحصن» لعلي القاري قال الشبلي حين قيل له لم لم تفتح باب الإفادة لينتفع أصحاب الاستفادة، فقال: والذي نفسي بيده لحضور قلبي في استغراق نور ربي خير من علوم الأولين والآخرين، وهذا المعنى هو زبدة كلام الأنبياء والمرسلين، وباقي الأحكام والأمور إنما هو من العوارض في سير السالكين، فاقصد المقصد الأقصى والمسند الأعلى والمقام الأسنى والحالة الحسنى الموجبة للزيادة في الدنيا والعقبى، انتهى، وذلك عندهم كعلم تصفية الباطن المشار في الحديث بعلم المكاشفة.

(غير تضييع العمر) فيما لا يعتد به أصلاً أو كمالاً كما عرفت تفصيله **(بجلال ذي الجلال)** القسم إما لصدق الرغبة في جواب القسم أو لأمارة الإنكار لعدم التعارف من نحو الإنجيل أو ما يقال إنه لا يسأل ولا يعاقب الميت من حين قبض الروح إلى أن يدفن كما في بعض الكتب.

(إني رأيت في الإنجيل) يشكل بمنع النظر للكتب السابقة كما في حديث عمر رضي الله تعالى عنه وقرر في الأصول أن شريعة من قبلنا شريعة لنا لكن إذا قصها الله أو أخبر الرسول لعدم الأمن فيما في أيديهم من الكتب لاحتمال التحريف إلا أن يفرق بين ما يتعلق بالأحكام وغيره أو بمخالفة قواعد شريعتنا أو عدمها وادعى أن ذلك ليس بمخالف بقاعدة ولا بأثر قوي أو ضعيف فتأمل. **(أن عيسى عليه السلام قال: من ساعة أن يوضع الميت على الجنازة)** بكسر الجيم الذي يحمل به الميت **(إلى أن يوضع شفير القبر)** طرفه **(يسأل الله تعالى بعظمته منه)** الظاهر بلا واسطة ملك **(أربعين سؤالاً أول ما يقول الله تعالى: عبد طهرت منظر الخلق سنين)** أي مدة عمرك بتزيين الجوارح سيما بالاشتغال بنحو العلوم السابقة ففائدة هذا النقل هي هذا يعني إن مثل تلك العلوم إنما هو لتطهير منظر

وما طهرت منظري ساعة وكل يوم أنظر في قلبك فيقول: يا عبدي ما تصنع بغيري وأنت محفوف بخيري إما أنت أصم لا تسمع.

أيها الولد: العلم بلا عمل جنون، والعمل بلا علم لا يكون.

الخلق وتطهير منظرهم مما يسأل عنه، ابتدأ سؤال مناقشة وعتاب **(وما طهرت منظري ساعة وكل يوم أنظر في قلبك)** بل عمله محيط دائماً أحوال قلوب كل أحد.

(فيقول: يا عبدي ما تصنع بغيري) الظاهر استفهام إنكار والباء سببية يعني لا تصنع لأجل غيري بل ليكن عملك لأجلي لأنك مستغرق بنعمي وليس لك نعمة ولو حقيرة من غيري حتى يكون داعياً لعملك له، ويشير إليه قوله: **(وأنت محفوف)** أي محاط ومستغرق **(بخيري)** الظاهر جملة حالية في مقام التعليل كما أشير **(إما أنت أصم لا تسمع)** هذا القول إما من الإنجيل فكأنه تعالى يقول: أما تعلم ورود خيري عليك فلم لم تعمل على موجبه بل تعمل على خلافه من تطهير منظر الخلق أو ممن يخاطب طالبه المعهود ألم تسمع مثل هذه القصة فلم لم تعمل.

أيها الولد: فلما أوهم فيما سبق المنع عن العلم بالكلية فدفعه مع العناية إلى اهتمام العمل أيضاً وقال: **(العلم بلا عمل جنون)** لأن العلم سوى الاعتقاديات ليس بمقصود في نفسه بل لأجل العمل فلولا العمل فلا فائدة فيه فتحمل أعباء العلوم وارتكاب مشاق تحصيله بلا عمل لا يصدر إلا ممن سلب عنه العقل إذ العقلاء لا يتجاسرون على محن ما لا ينفعهم.

(والعمل بلا علم لا يكون) عملاً أصلاً أو معتداً به إذ أحكام العمل وتمييز أنواعها وبيان ماهيته وما يترتب عليه إنما هو بالعلم وقد قيل: إن الصوفي الجاهل مسخرة للشيطان كما في «الفوائح المسكية» أنه غلب على الشيخ عبد القادر الكيلاني العطش في برية قال: فأظلني سحابة ونزل عليَّ منها شيء يشبه الندى فترويت به ثم رأيت نوراً أضاء به الأفق وبدت لي صورة ونوديت منها: يا عبد القادر أنا ربك قد حللت لك المحرمات فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اخنس يالعين فإذا انقلب ذلك النور ظلاماً والصورة دخاناً ثم خاطبني

واعلم أن كل علم لا يبعدك اليوم عن المعاصي ولا يحملك على الطاعة

لن يبعدك غداً عن نار جهنم وإذا لم تعمل بعملك ولم تدارك الأيام الماضية تقول غداً يوم القيامة فارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، فيقال: يا أحمق أنت من هناك جئت.

وقال: نجوت مني بعلمك لحكم ربك وفقهك وقد أضللت بمثل هذه الوقعة سبعين من الصوفي الجاهل.

(واعلم أن كل علم) أي مجرد عن العمل **(لا يبعدك اليوم عن المعاصي)** يعني أن العلم الذي لا يبعدك بمجرده عن المعاصي **(ولا يحملك)** اضطراراً **(على الطاعة)** في الدنيا كذلك **(لن يبعدك غداً عن نار جهنم)** فلا تغتر بعملك فإن العلم ليس بمستقبل في هداية الطريق المستقيم بل لا بد من التقيد والاهتمام بعمل بموجبه بكسر النفس وترك الهوى وصرف الأوقات إلى دقائق وظائف الأعمال وحقائق رواتب الطاعات في جميع الأحوال.

(وإذا لم تعمل بعملك) اليوم **(ولم تدارك الأيام الماضية)** بالتوبة الصادقة والقضاء وأداء الحقوق واسترضاء الخصوم مع أن لكل وقت وظيفة فلو فات ففي أي وقت يتدارك بل للوقت الآخر وظيفة كذلك **(تقول غداً يوم القيامة)** بيان لمعنى الغد على طريق التوضيح **(فارجعنا)** أي أعدنا لعل الفاء متعلق على ما ورد عليه من العقوبات وآثارها أو جيء على طريق الاقتباس فلا يقصد تعلقه بما قبله هنا بل المتعلق المطلوب في محله الأصلي **(نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، فيقال: يا أحمق)** القائل من الملائكة **(أنت من هناك جئت)** يعني قد جئت من تلك الدنيا أو من أي محل تجيء. لقد صدق من قال:

يا من تقاعد عن مكارم خلقه   ولبس التفاخر بعلومه الظاهرة
مَن لم يهذب علمه أخلاقه   لم ينتفع بعلومه في الآخرة

إشراقة الروح وظلمة المادة

أيها الولد: اجعل الهمة في الروح والهزيمة في النفس والموت في البدن لأن منزلك القبر وأهل المقابر ينظرون إليك في كل لحظة متى تصل إليهم.

إشراقة الروح وظلمة المادة

أيها الولد: لعل هذا إشارة إلى بيان طريق العمل وقدر الاجتهاد فيه **(اجعل الهمة في الروح)** لعل المعنى ليكن قصدك إلى تجلية الروح التي هي المقصود الأصلي للمتصوفة إذ الوصول إلى المقامات بقطع العقبات وإلى المكاشفات والتجليات لا يكون إلا بها وتجلية الروح لا تحصل إلا بتصفية القلب وذا لا تحصل إلا بتزكية النفس وإليها يشير بقوله: **(والهزيمة في النفس)** يعني اجعل الكسر أي القهر والمخالفة في النفس وهي قوة شهوية تتعلق بكل البدن على السوية وهي منشأ الصفات الذميمة واتصافها بالحميدة، قال عليه السلام: «**أعدى عدوك**» الحديث. فإن لم تقهرها بل وافقتها وساعدت دواعيها فتجعلك خديماً لنفسها وأسيراً لها ومن كان كذا لا يخدم ولا يعبد مولاه لأن من كان مسخراً لعدو الله وخديماً له لا يعبد الله تعالى.

(والموت في البدن) عد نفسك من الموتى واقنع بما يحصل به وطر الموتى أو اعمل للموت **(لأن منزلك القبر)** فعمر منزلك الذي هو ملك لك خلاف منازل الدنيا لأنها عارية عندك فالعاقل لا يضيع عمره في تعمير مُلك الغير دون تعمير مُلكه **(وأهل المقابر ينظرون إليك في كل لحظة متى تصل إليهم)** لعلهم يتبركون بجواريته وينتفعون بصحبته أو قربيته ولذا عد من حقوق الميت دفنه قرب قبور الصالحين، وقد جاء في الدعاء: اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول.

41

إياك وإياك أن تصل إليهم بلا زاد، قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: هذه الأجساد قفص الطيور واصطبل الدواب، فتفكر في نفسك من أيهما أنت إن كنت من الطير العلوي فحين تسمع طنين طبل ارجعي ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصّلَت: الآية 30] **تطير صاعداً إلى أن**

(**إياك وإياك**) تأكيد تحذير لزيادة اهتمام العمل الذي يسرهم وتركه يحزنهم (**أن تصل إليهم بلا زاد، قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه**) لعل الغرض من النقل بيان فائدة العمل وتأييد منافع العمل ومن غرائب مناقبه في الفوائح عن رضوان السمان أنه قال: كان لي جار فشتم أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فتضاربنا بهما معه فانصرفت إلى منزلي مغموماً حزيناً فنمت تارك الصلوات من الغم فرأيت رسول الله عليه السلام فشكيت من سبه إليهما فقال: خذ هذه الدنية فاذبحه فأخذتها وأضجعته فذبحته فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من داره فقلت: انظروا ما هذا، قالوا: فلان مات فجأة، فلما كان الصباح نظرت إليه فإذا حط موضع الذبح (**هذه الأجساد**) أي أجساد الإنسان (**قفص الطيور**) أي كقفص الطيور التي من شأنها أن ترتفع إلى جانب العلو أي عند خلاصه من القفص (**واصطبل الدواب**) جمع دابة أي من شأنها أنها لا تنتقل بطبعها من اصطبلها للعلف ولو انتقلت تنتقل إلى أخرى سفلى مثلها (**فتفكر في نفسك من أيهما**) أي من القفص أو الاصطبل (**أنت إن كنت من الطير العلوي**) إشارة إلى وجه الشبه وذلك إنما يكون بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق والدقة في الأعمال والخوف الخشية في الباطن والظاهر.

(**فحين تسمع طنين**) صوت (**طبل ارجعي**) حين الانتقال من دار الفناء من ملائكة الرحمة وهو عند النزع ويقولون (﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾) للانتقال إلى دار غربة ووحشة (﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾) لترك نحو الأولاد والأحباء والأموال وفراقهم (﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصّلَت: الآية 30])، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفَجر: الآية 27] بذكره تعالى وطاعته ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية 28]، ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفَجر: الآية 28] الآية (**تطير صاعداً إلى أن**

تقعد في أعالي بروج الجنان كما قال عليه الصلاة والسلام: «اهتز عرش الرحمٰن من موت سعد ابن معاذ رضي الله تعالى عنه».

والعياذ بالله إن كنت من الدواب السفلى كما قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية 179].

فلا تأمن من انتقالك من زاوية الدار إلى هاوية النار.

تقعد في أعالي بروج الجنان) يعني حين يخرج روحه يطير إلى الجنة ويتقرر فيها، وهذا معنى قوله إلى أن تقعد في أعالي بروج الجنان **(كما قال عليه الصلاة والسلام: «اهتز عرش الرحمٰن من موت سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه»)** وقال شرّاح الحديث: إنما يهتز تنشيطاً وسروراً لقدوم روحه إذ العرش موضع أرواح السعداء. وقيل: المراد حملته يهتزون إما لمسرتهم أو من ثقلة ثوابه. وقيل: السرير الذي يوضع عليه الميت لثقلته بالثواب أيضاً، والكاف في قوله كما قال بمعنى المثل فيُعد العرش من الجنة بحكم المجاورة كما قال عليه السلام: **«سقف الجنة عرش الرحمٰن»**.

(والعياذ بالله إن كنت) أي نعوذ بالله، العياذ مفعول مطلق لفعل محذوف عطف على قوله: إن كنت من الطير العلوي، **(من الدواب السفلى)** بإرسال النفس على هواها والميل إلى لذاتها **(كما قال الله تعالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الأعراف: الآية 179]**)** أي كالدواب، وجه الشبه على سوق المصنف يقتضي الانتقال من مكان سفل إلى أسفل منه والظاهر هو عدم الشعور والتأمل في عواقب الأمور وترك الاستدلال فيما يستدل عليه فافهم **(**﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفُرقان: الآية 44]**)** في عدم الفهم والشعور.

(فلا تأمن من انتقالك من زاوية الدار) أي الدنيا **(إلى هاوية النار)** إما علم لجنس نار جهنم أو لطبقتها، يعني إن كنت من الأشقياء يكون موتك سبباً لدخول النار، قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ [الفُرقان: الآية 22]. وجاء في الخبر: فحين الموت يدخل الملائكة في عروقه ويعصرون روحه من قدميه إلى ركبته ثم طائفة أخرى إلى البطن ثم أخرى

روي أن الحسن البصري رحمة الله عليه أعطي له شربة ماء بارد فلما أخذ القدح غشي عليه وسقط من يده فلما أفاق قيل له: ما بالك يا أبا سعيد، قال: ذكرت أمنية أهل النار حين يقولون لأهل الجنة أن ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية 50] **من نعم الجنة.**

إلى الحلقوم فعند ذلك إن كان مؤمناً ينشر جبرائيل عليه السلام جناحه الأيمن وفيه صورة الجنة وما فيها من الحور والقصور والغلمان فيرى مكانه في الجنة ولم ينظر إلى أبويه وأولاده فيخرج روحه لحبه وإن كان منافقاً ينشر جناحه الأيسر وفيه صورة النار وما فيها من العذاب كالقطران والحيات والعقارب فيرى مكانه في النار فلم يقدر إلى نظر أولاده وأبويه من فزع ذلك المكان.

(**روي أن الحسن البصري رحمة الله عليه أعطي له شربة ماء بارد فلما أخذ القدح غشي عليه**) أي زال عقله (**وسقط**) أي القدح (**من يده فلما أفاق قيل له: ما بالك يا أبا سعيد، قال: ذكرت**) أي أخطرت الظاهر من الذكر (**أمنية**) أي طلب (**أهل النار حين يقولون لأهل الجنة أن** ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية 50] **من نعم الجنة**) ثم الغشيان إما للخوف لأن يكون من أهل النار القائلين ذلك وإما للنشاط والسرور لنِعَم أهل الجنة، وعلى التقديرين تحذير عن ترك العمل وتحريض على فعله لعل المقصود من قص هذه هو ذلك.

فضل العبادة

أيها الولد: إن كان العلم المجرد كافياً لك ولا تحتاج إلى عمل سواه لكان نداء: هل من سائل، هل من مستغفر، هل من تائب، ضائعاً بلا فائدة.

فضل العبادة

أيها الولد: (**إن كان**) لفظ إن بمعنى لو، بل الأولى أن يقال لو كان (**العلم المجرد كافياً لك ولا تحتاج إلى عمل سواه**) الظاهر عموم العمل إلى الفضائل، وظاهر قوله: (**لكان نداء هل من سائل**) أي نداء مناد من قبل الله تعالى وقت الثلث الأخير من الليل هل من سائل أي داع فأستجب له (**هل من مستغفر**) فأغفر له (**هل من تائب**) فأقبل توبته (**ضائعاً بلا فائدة**) يقتضي التخصيص بالفرائض والواجبات إذ الاستغفار والتوبة إنما يكونان لمعصية والمعصية لا تتصور في ترك الفضائل إلا أن يفرق بين توبة الخواص واستغفارهم وبين العوام، والإشكال بالعوام والكلام في الخواص.

فإن قلت: العالم الغير العامل يجوز منه الاستغفار والسؤال فكيف يصح الملازمة، قلت: الظاهر من الاستغفار ونحوه هو الشمول بالأعمال أي بتركها وممتنع شرعاً أن يستغفر على ترك عمل مع الإصرار على ذلك الترك وعدم القصد على إتيانه على أن مثل هذه من الخطابيات المقصود منها الترغيب على ما ينفعهم والترهيب عما يضرهم فلا يضر مثل تلك الشبه كالتحقيقيات فاعرفه.

ثم بيان هذا المقام على نهج ما نبه في «المرام» مضمون حديث نقل عن غاية البيان عن النبي عليه السلام وإلا فمثل هذه المطالب مما يمتنع إدراكه بالرأي، بقي أنه إنما اختار في إثبات العمل باستغفار السحر وتوبته كما أشير وسيصرح فيما أتاه للتأييد إيذاناً على مزية دعاء السحر وتوبته وكذا جميع عبادته على سائر الأوقات كما

وروي أن جماعة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ذكروا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما عند رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل هو لو كان يصلي بالليل». وقال ﷺ لرجل من أصحابه: «يا فلان لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل يدع صاحبه فقيراً يوم القيامة».

يدل عليه جميع ما سيذكره من قوله. **(وروي أن جماعة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ذكروا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما)** وهو من كبار فقهاء الأصحاب ومن العبادلة الثلاثة، الظاهر ذكر عمله وإلا فلا يحسن التأييد لما قبله **(عند رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل هو لو كان يصلي بالليل»)** الظاهر هو نحو التهجد وتخصيصها لقوة شرفها لأن ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المُزمّل: الآية 6]. وفي بعض التفاسير عن النبي عليه السلام: «**ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل الأخير خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتها عليهم**». وفي «جامع الصغير» بلفظ يركعهما ابن آدم بدل العبد، وفيه أيضاً: ركعتان في جوف الليل يكفران الخطايا. ثم الظاهر أنه لو كفى العلم المجرد لسكت عليه السلام عند مدح ابن عباس رضي الله عنهما ولم يسكت بل جعل مدار المدح صلاة الليل وكان مدار المدح ليس مجرد علم الصلاة بل انضمام الصلاة بعلمه رضي الله عنه كما في «جامع الصغير»: ركعة من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله. وفيه أيضاً: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم. **(وقال ﷺ لرجل من أصحابه: «يا فلان لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل يدع)** أي يترك بمعنى يجعل **(صاحبه فقيراً يوم القيامة»)** وفي «طهارة القلوب»: وا عجباً لمن يضيع سحره بالنوم كمن يبيع الثلج وقد بقي عنده شيء يذوب لسخافته فينادي: ارحموا من يذوب رأس ماله، يا مضيعاً أوقاته بالكسل كلما كان الفقير كسلانَ لا يجد الغناء تبيع قيام الليل بزيادة لقمة وشربة كأس النوم ففاتك رفعة ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ﴾ [السَّجدَة: الآية 16] وخرج فرصة السحر ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف، والله لو بعت لحظة من لذة سحر بما يملك قارون في عمر نوح لكنت مغبوناً، انتهى.

فضل قيام الليل

أيها الولد: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: الآية 79] **أمر** ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⑱﴾ [الذاريات: الآية 18] **شكر،** ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 17] **ذكر.**

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت الرجل الذي يقرأ القرآن، وصوت المستغفرين بالأسحار».

فضل قيام الليل

أيها الولد: (﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: الآية 79] **أمر**) من الله لكافة عباده وموجب الأمر هو الوجوب وقد علله الله تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: الآية 79] فهناك كلام لا يتحمله المقام (﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⑱﴾ [الذاريات: الآية 18] **شكر**) أي مدح الله تعالى وثناء لمستغفري السحر ومن السعادة العلية كان الله مادحه إذ لا يعذب من مدحه (﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عِمرَان: الآية 17] **ذكر**) مصداقه ذكر لأن كل شيء مذكر له تعالى فهو ذكر، فالاستغفار إلى الله ليس إلا ذكر الله، والمعنى ذكر من الله إياهم يعني المستغفرين ولن يخيب من يذكره الله. فالحاصل مما ذكر أن صلاة التهجد مأمور وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين بالأسحار وذكرهم فالعاقل لا يفوت مثل تلك الفرصة ولا يتركه أبداً.

ثم أيد فضيلة الاستغفار فيها بحديث فقال: (**قال رسول الله ﷺ: «ثلاث أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك**) ولذا يستحب الدعوة عند صيحته كما في الحديث (**وصوت الرجل الذي يقرأ القرآن**) وفضلها مما لا يخفى لأنه كالمكالمة والصحبة مع الله تعالى (**وصوت المستغفرين بالأسحار»**) لعل وجه كونه محبوباً

قال سفيان الثوري رحمه الله: إن الله تعالى خلق ريحاً تهب وقت الأسحار تحمل الأذكار والاستغفار إلى الملك الجليل الجبار.

وقال أيضاً: إذا كان أول الليل ينادي منادٍ من تحت العرش: ألا ليقم العابدون، فيقومون ويصلُّون ما شاء الله، ثم ينادي منادٍ في شطر الليل: ألا ليقم القانتون، فيقومون ويصلُّون إلى السحر، فإذا كان السحر ينادي منادٍ: ألا ليقم المستغفرون، فيقومون ويستغفرون.........................

لأنه وقت يفرغ فيه القلب عن الأشغال الدنيوية ويتوجه إلى عالم القدس بالتفرغ عن وساوس الشيطان وأنه وقت إدبار الليل وإقبال النهار.

(**قال سفيان الثوري رحمه الله: إن الله تعالى خلق ريحاً تهب**) من الهبوب (**وقت الأسحار تحمل الأذكار**) كلها (**والاستغفار إلى الملك**) أي إلى قبول الملك ورضائه (**الجليل الجبار**).

(**وقال**) سفيان (**أيضاً: إذا كان أول الليل ينادي مناد**) وهو من الملائكة (**من تحت العرش: ألا ليقم**) مضارع بفتح اللام أو أمر فاللام بكسر تأمل (**العابدون فيقومون ويصلُّون ما شاء الله**) يعني إلى الصباح ولا يثقل عليهم بل يحصل من قيامهم لذة وراحة أشد من لذة أهل اللهو من لهوهم، وقد قال بعضهم: لو وجد مثل نعيم الجنة في الدنيا لكان حلاوة أهل المناجاة في الليالي، ولهذا قال ابن بكار: منذ أربعين سنة ما يحزنني إلا طلوع الفجر.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عِمرَان: الآية 26] المراد قيام الليل، ومن حرم قيام الليل كسلاً وفتوراً وتهاوناً لقلة الاعتبار فليبك عليه لقطعه طريق الخير الكثير، كل ذلك من «عوارف المعارف».

(**ثم ينادي منادٍ في شطر الليل**) الظاهر من نصفه (**ألا ليقم القانتون**) لعل المعنى المواظبون على الطاعة (**فيقومون ويصلُّون إلى السحر فإذا كان السحر ينادي مناد: ألا ليقم المستغفرون، فيقومون ويستغفرون**) والسحر أفضل كما قال عليه السلام على ما في «جامع الصغير»: «**أفضل الساعات جوف الليل الأخير**».

ثم اعلم أن تفصيل إحياء الليل على ما فصل المص في الإحياء على سبع مراتب فلنذكرها على وجه الإيجاز:

الأولى: إحياء كل الليل، هذا شأن الذين تجردوا للعبادة وتلذذوا بالمناجاة إلى أن صار غذاء لهم وحياة وهم ردوا المنام إلى النهار في وقت اشتغال الناس بأمور الدنيا، وهذا طريق جماعة من السلف يصلُّون الصبح بوضوء العشاء.

الثانية: قيام نصف الليل، وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأول والسدس الأخير فيقع قيامه في جوف الليل وهو الأفضل. وفي «العوارف» قال الله تعالى: يا داود قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك وارفع إليّ حوائجك.

الثالثة: أن يقوم ثلث الليل بنوم النصف الأول والسدس الأخير إذ نوم آخر الليل مستحب لأنه يذهب النعاس. ويقال: صفرة الوجه، قالت عائشة رضي الله عنها وعن أبويها: كان رسول الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهن وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة، وكان نوم هذا الوقت يسبب المكاشفة والمشاهدة من وراء الحجب والغيب وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة تعين على الورد الأول من أوراد النهار وقيام ثلث الليل من النصف الأخير ونوم السدس الأخير قيام داود عليه السلام.

الرابعة: قيام سدس الليل أو خمسه، وأفضل ذلك كونه في النصف الأخير.

الخامسة: عدم التقدير إذ هو إنما يتيسر إما لنبي يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر أو يوكل عليه من يوقظه فيقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم فينام فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم عاد إليه فيكون له نومتان وقومتان وذلك مكابدة الليل وأشد الأعمال وأفضلها، وهذا من أخلاق سيد المرسلين وطريقة أولي العزم من الصحابة والتابعين.

السادسة: قيام مقدار أربع ركعات أو ركعتين أو يتوضأ فيجلس نحو القبلة ساعة مشتغلاً بالذكر والدعاء فيكتب من جملة قوّام الليل. وقد جاء في الأثر: صلِّ

من الليل ولو قدر حلب شاة انتهى. وسبب الفتور وعدم القيام هو الذنوب فليحذر

فإذا طلع الفجر ينادي مناد: ألا ليقم الغافلون فيقومون من فروشهم كالموتى نشروا من قبورهم.

أيها الولد: روي في وصايا لقمان........

العبد ذنوباً تقيده في ليله. وقال الثوري: حرمت سبعة أشهر بذنب أذنبته فقيل له: ما كان، قال: رأيت رجلاً باكياً فقلت في نفسي هذا مراء. ثم التهجد ما يكون بعد النوم وقيل بين النومتين فما قبل النوم قيام ليل فقط. وفي رسالة تاج الدين النقشبندي: يصلي في التهجد اثنتي عشرة ركعة في كل ركعة سورة يٰس تماماً وإن لم يقدر ففي ثماني ركعات في الأولى إلى ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: الآية 11] وفي الثانية إلى ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: الآية 21] وفي الثالثة إلى ﴿جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: الآية 32]، وفي الرابعة إلى: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: الآية 33]، وفي الخامسة إلى ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: الآية 50]، وفي السادسة إلى ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية 51]، وفي السابعة إلى ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: الآية 71]، وفي الثامنة إلى آخره، وفيما بقي من الأربعة في كل ركعة سورة الإخلاص ثلاثاً ثلاثاً وإن لم يكن يٰس في حفظه ففي الكل الإخلاص. وإنما خصص يٰس لأنه إذا اتفقت ثلاثة قلوب على مطلوب حصل البتة: قلب القرآن أي يٰس، وقلب الليل، وقلب العبد أي خلوصه وذلك في التهجد.

(**فإذا طلع الفجر ينادي مناد: ألا ليقم الغافلون**) لغفلتهم وذهولهم عن مثل هذه الفرصة (**فيقومون من فروشهم**) من الفراش (**كالموتى نشروا من قبورهم**) فإن الحي لا يفوت إحياء الليالي والفوت إنما يصدر من الميت فهم والموتى سواء.

أيها الولد: يريد أن يؤيد إحياء الليالي ولزومه بوصية بعض الأنبياء وشعر بعض الحكماء (**روي في وصايا لقمان**) وهو الذي اختلف في نبوته، ومن وصاياه لابنه: يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في أرب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك ولا تصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما

خلفت، يا بني لا تزاحم العلماء بركبتيك ولا تجادل بهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وانفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون على

الحكيم لابنه أنه قال: يا بني الديك أكيس منك ينادي وأنت نائم لقد أحسن من قال شعر: لقد هتفت في جنح ليل حمامة على فنن وهنا..........

أعناق الرجال كلاً، وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضر صلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم.

(**الحكيم**) ليس المراد به ما يتداول بين العامة من عالم الفلاسفة الذين ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النّساء: الآية 46] بل هو عالم حكمة بمعنى استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها كما في «تفسير البيضاوي» فتوصيفه بالحكمة للتلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمَان: الآية 12]، وفائدة التلميح إشارة إلى أن ما ذكر هنا من الحكمة التي آتاه الله تعالى فيكون تأكيداً للاحتياج وترويجاً لما قال.

(**لابنه**) إشارة إلى أن هذه الوصية من الوصايا اللازمة التي يوصى بها إلى الابن (**أنه قال: يا بني**) وفائدة النداء استكمال التوجه وإتمام التأكيد بالنون لأهمية الأمر ولزوم الاعتناء به (**الديك أكيس**) من الكياسة كالزكاء (**منك ينادي**) للتسبيح والذكر ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسرَاء: الآية 44]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: الآية 1]. قال في «تفسير العيون» عن عكرمة: يسبح الشجر والأسطوانة لا تسبح والشجرة والنباتات المقطوعة تسبح ما دامت رطبة وتسبيحها: سبحان الله العظيم وبحمده. وقيل: إن الثوب يسبح ما دام جديداً وإذا وسخ ترك التسبيح، والتراب يسبح إلى أن يبل، والماء يسبح ما دام جارياً، فإذا سكن ترك التسبيح انتهى.

(**وأنت نائم لقد أحسن من قال شعر: لقد هتفت**) أي صاحت (**في جنح ليل**) أي ظلمته وسواده (**حمامة**) جمع حمام (**على فنن**) بالتحريك شعاب وغصن

(وهنا) قاله في «القاموس» الوهن نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه، فالمعنى صاحت الحمائم في ظلمة على أغصان في نصف الليل مع أنها ليست بمكلفة ولا

وإني لنائم كذبت وبيت الله لو كنت عاشقاً لما سبقتني بالبكاء الحمائم وأزعم أني هائم ذو صبابة لربي ولا أبكي وتبكي البهائم.

يترتب على صيحتها ثواب أخروي ولا بتركها وزر بل صيحتها لمجرد ما اقتضاه حال العبودية.

(وإني لنائم كذبت) فيما ادعيت من عشق الله تعالى وعبادته ومحبته وطلب رضائه وثوابه **(وبيت الله)** الظاهر ورب بيت الله إذ القسم بغير الله ليس بجائز **(لو كنت عاشقاً)** يعني لو لم أكن كاذباً في دعوى العشق لكنت عاشقاً ولو كنت عاشقاً **(لما سبقتني بالبكاء الحمائم)** فاعل سبقتني لصيحتهم عند نومتي وغفلتي في سواد الليل **(وأزعم)** أي أعتقد وأعلم **(أني هائم)** أي متحير مسلوب العقل **(ذو صبابة)** أي ذو عشق، يعني أعلم أني عاشق مجنون لأن العاشق العاقل والصادق في عشقه لا يغفل عن ذكر مولاه وطلب رضاه وقد سبقتني الحمائم التي ليس لهن تكليف إلٰهي ولم ينزل في ذكرهنّ كتاب رباني ولم يرسل نبي رحماني وقد كان كل ذلك لي **(لربي)** اللام إما متعلق بهائم أو بصبابة ولو لم يكن ممانعة من الواو ولكان تعلقه بقوله **(ولا أبكي)** أجود ولو فتح اللام وجعل توطئة القسم بنحو من التأويل لم يكن بعيداً غاية البعد **(وتبكي البهائم)** إما ببكاء حقيقي أو مجازي وهو الظاهر إذ الأول إنما يعلم ببيان من صاحب الشريعة.

القصد من العبادة

أيها الولد: خلاصة العلم أن تعلم الطاعة والعبادة ما هي، اعلم أن الطاعة والعبادة إنما هي متابعة الشرع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، يعني كل ما تقول وتفعل وتترك قولاً وفعلاً يكون باقتداء الشرع كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصياً أو صلّيت في ثوب مغصوب وإن كانت صورته عبادة لكن يأثم به.

القصد من العبادة

أيها الولد: (خلاصة العلم) أي نتيجته وثمرته مقدار **(أن تعلم الطاعة والعبادة ما هي)** أي قدر أن تعلم ماهيتهما وحقيقتهما يعني يكفي تحصيل هذا المقدار من العلم فلا حاجة إلى تحصيل ما فوق ذلك بالتبحر وتفاصيل الأدلة بل اللازم بعد ذلك قصر النظر وصرف المقدور وبذل الوسع في حقائق الطاعة ودقائق أسرار العبادة إذ العلم في ذاته ليس بمقصود بل إنما قصد ذلك لأجل الطاعة فإذا حصل قدر ما يعلم أحوال الطاعة فلا حاجة إلى الزيادة، ففيه إشارة إلى اختيار جانب العمل وإن كان عند البعض ترجيح جانب العلم.

ثم بين ماهية الطاعة والعبادة بقوله: **(اعلم أن الطاعة والعبادة)** أي المقبولة **(إنما هي متابعة الشرع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، يعني كل ما تقول وتفعل وتترك)** قول المص **(قولاً وفعلاً)** لم تحم حول صحته فلعل الأولى عدم

إتيانه (**يكون باقتداء الشرع**) فلو لم يأخذ من الشرع لا يقبل بل يكون عصياناً وإن كان في صورة عبادة (**كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصياً**) لترك إجابة دعوة إلى ضيافته تعالى كما في الأصولية والفروعية (**أو صلّيت في ثوب مغصوب وإن كانت صورته عبادة**) الظاهر قيد لهما (**لكن يأثم به**) الإثم إنما يكون

. . . .

بترك الواجب أو بفعل المحرم والصلاة مع المغصوب ليست بمحرمة بل مكروهة وليست في الكراهة معصية وإثم بل عتاب واستحقاق حرمان شفاعة إلا أن يقال ذلك محرم عند المص أو يدعي الإثم في الكراهة التحريمية أو الإثم أعم فيشمل نحو العتاب.

اتباع الابتداع

أيها الولد: فينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلال، فينبغي لك أن لا تغتر بشطح وطامات الصوفية لأن السلوك بهذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس. . . . .

اتباع الابتداع

أيها الولد: إذا كانت العبادة والطاعة متابعة الشرع قولاً وفعلاً **(فينبغي لك)** أي يجب عليك **(أن يكون قولك وفعلك)** في جميع أوضاعك وأحوالك **(موافقاً للشرع)** للكتاب والسنة والإجماع والقياس **(إذ العلم)** الظاهر في تعليل ما سبق أن يكتفي بقوله **(والعمل)** إلا أن العمل لكونه على نهج العلم أردفه به **(بلا اقتداء الشرع)** بل بلا اقتداء ما هو أصح وأولى إلى أن يلتزم الاحتياط في جميع الأمور بترك نحو ما يقال في حقه لا بأس، وبالجملة بترك العزيمة وارتكاب الرخص الشرعية بلا ضرورة **(ضلال)** عند خواص الصوفية إذ الرخصة بلا ضرورة كالحرام عندهم فلا يركنون إليها بلا ضرورة **(فينبغي لك أن لا تغتر)** من الاغترار والغرور **(بشطح وطامات)** جمع طامة بمعنى البلية والغلو لعل المراد من طامات **(الصوفية)** أقاويلهم المتجاوزة عن الشرع وما أحدثوا من تلقاء أنفسهم بلا أخذ من صاحب شريعة **(لأن السلوك بهذا الطريق)** أي طريق الشرع أو طريق المتصوف

المتشرع **(يكون بالمجاهدة)** أي بجهاد النفس ومحاربتها إذ هذا الجهاد الجهاد الأعظم كما ورد في الحديث، إذ الجهاد مع الكفار يسير لظهور حيلهم واندفاعهم بمرة واحدة وكونهم مرئيين محسوسين يسهل الخلاص من سهامهم ورماحهم بخلاف النفس. وقوله: **(وقطع شهوة النفس)** كعطف العلة على المعلول وطريق القطع إنما يكون بمنع جميع ميولاتها عنها وقهرها والمخالفة في جميع شؤونها في

وقتل هواها بسيف الرياضة.............................

العبادات والعاديات إلى مرتبة قوله ﷺ: «نفسك مطيتك فارفق بها». ومن لطائف هذا المقام ما وقع لبعض الفقراء في عالم المثال وهو أنه عند مجاهدته مع النفس كأنه في المدينة في قبة العباس رضي الله تعالى عنه فإذا قال له قائل: لي معك دعوى ويطلبك الحاكم، فدفعه بأني لا أترك الآن لذة مجلس هذه الحضرات رضوان الله تعالى عليهم فلنرافع بعد الغد. فرجع الجائي ثم خطر بباله: الحاكم في هذه البلدة ليس إلا النبي عليه السلام، فأدرك من خلف الجائي وسأله فقال: نعم، فقال على الرأس والعين. فذهب معه بآداب وخضوع فوقف وراء الشبكة في الروضة المطهرة فإذا ذلك الجائي هو ذلك الفقير نفسه، فادعت وشكت له ﷺ نحو أن قال: هذا رجل مؤذ ومضر لا يزول عن إيذائي كلما حصلت راحة بأنواع التعب والمشقات فيزيل عني من ساعتها ولم أجد بداً أو سلامة من أذيته، فقال له ﷺ: هل الأمر مثل ما قالت، قال: بل اللائق بالشكاية ليس إلا أنا لأن الله تعالى أمرني بالطاعة وإني أصرف غاية وسعي ونهاية جدي في طاعته وهذه تصرف غاية طاقتها ونهاية جدها في إظهار الموانع وإيقاع حب العلائق وحيل التفرقة في القلوب فكلما دفعتها بمشقات وحيل فتنزل من الفور والساعة وقصدها دائماً إلى إهلاكي وإيقاعي إلى معصية الله تعالى وهي تتحد وتوافق مع الشيطان فيقطعان طريقي إلى الله وإليك يا رسول الله فنبه إياها أن لا تفعل مثلها، فقال رسول الله ﷺ: هل الأمر كذلك، فقالت: ليس لي سهام ولا جبر وإنما حالي وسوسة فإن كان صادقاً في دعوى الاستقامة والمحبة فكيف تؤثر حيلتي وسعايتي، فقال له ﷺ: يا ولدي ويا صبيي

كن متصلباً في رعاية حدود الله والتزم سنتي واجتهد على التقى والورع والتزم على خلاف ما أوجبه النفس واترك هواها وكن حافظاً إلى جميع قواعد شريعتي إن كنت صادقاً في دعوى حبي ولا تنفك ساعة عن رضائي فإن المحب لن يقرب إلى ما كره إليه المحبوب.

(وقتل هواها) أي هوى النفس **(بسيف الرياضة)** أي الرياضة التي كالسيف فمن قبيل لجين الماء أي إضافة المشبه به إلى المشبه والرياضة في الأصل تقليل

لا بالطامات والترهات الصوفية واعلم أن اللسان المطلق والقلب المطبق المملوء بالغفلة والشهوة علامة الشقاوة ودليلها حتى لا تقتل بصدق المجاهدة لن تحيي بأنوار المعرفة.

واعلم أن بعض مسائلك التي سألتني عنها لا يستقيم جوابها بالكتابة

الأكل والشرب لأن المعدة ينبوع الشهوات إذ منها تنبعث شهوة الفرج ثم إذا غلبت تنبعث شهوة المال ثم إذا غلبت تنبعث شهوة الجاه ثم الجاه والمال تزاحم الآفات كلها كالكبر والرياء والحسد والعداوة فلذا عظم رسول الله ﷺ أمر الجوع فقال: «**ما من عمل أحب إلى الله تعالى من الجوع والعطش**»، وقال: «**لا يدخل ملكوت السماوات من ملأ بطنه**»، وقال: «**سيد الأعمال الجوع**»، وقال: «**قلة الطعام هي العبادة**»، وقال: «**أفضلكم عند الله أطولكم جوعاً وتفكراً وأبغضكم إلى الله أكول نؤوم شروب**»، وقال: «**إن الشيطان ليجري في ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش**»، وقال لعائشة رضي الله عنها وعن أبويها: «**أديموا قرع باب الجنة تفتح لكم، قالت: وكيف ذلك، قال: بالجوع والظمأ**».

(لا بالطامات والترهات الصوفية) أي الكلمات التي لا أصل لها في الشرع بل اخترعتها هوى أنفسهم **(واعلم أن اللسان المطلق)** أي أرسل وأطلق على حاله بلا كف عن المحظورات الدينية **(والقلب المطبق)** أي المستور بالغطاء **(المملوء بالغفلة)** كعطف تفسير له **(والشهوة)** أي هوى النفس **(علامة الشقاوة ودليلها حتى لا تقتل)** لعل الظاهر إن لم تقتل النفس **(بصدق المجاهدة)** أي بالمجاهدة الصادقة مع النفس الأمارة شأنها الميل إلى الطبيعة البدنية والأم

[illegible] مع النفس الأمارة شأنها الميل إلى الطبيعة البدنية والأمر باللذات والشهوات الحسية سائقة للقلب إلى الجهة السفلية فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة (**لن تحيي**) أنت قلبك (**بأنوار المعرفة**) لله تعالى النور عندهم ما يكشف به المستور من العلوم اللدنية والواردات الإلٰهية.

(**واعلم أن بعض مسائلك التي سألتني عنها**) لعل ذلك كلذة الوصال وأسرار التجليات والمكاشفات التي لا يمكن التعبير ويمتنع التصوير والتمثيل بل يعد جنس ذلك عند الإظهار إلحاداً في الشرع (**لا يستقيم جوابها بالكتابة**) أي

والقول بل أن تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي وإلا فعلمها من المستحيلات لأنها ذوقي وكل ما يكون ذوقياً لا يستقيم وصفه بالقول والكتاب كحلاوة الحلو ومرارة المر لا يعرف إلا بالذوق كما حكي أن عنيناً كتب إلى صاحبه عرِّفني لذة المجامعة كيف تكون فكتب في جوابه: يا فلان إني كنت إلى الآن حسبتك عنيناً فقط والآن عرفت أنك عنين وأحمق لأن هذه اللذة ذوقية إن تصل تعرف وإلا لا يستقيم وصفها بالقول والكتابة.

بالمكتوب (**والقول**) أي باللسان لما ذكر من الاستحالة (**بل أن تبلغ**) الظاهر أن شرطية (**تلك الحالة**) الظاهر إنارة القلب بالمعرفة (**تعرف ما هي**) أي ماهية تلك المسائل (**وإلا**) أي وإن لم تبلغ أنت تلك الحالات فلا يمكن بالكتابة والقول (**فـ**)إن (**تعلمها**) بدون البلوغ إليها (**من المستحيلات**) أي الممتنعات (**لأنها**) أي ذلك البعض من المسائل (**ذوقي**) أي وجداني لا طريق لها غير الوجدان (**وكل ما يكون ذوقياً لا يستقيم وصفه بالقول والكتاب**) إذا أريد الوصف لا يمكن انطباقه إياها لعدم إحاطة العبادة إياها (**كحلاوة الحلو**) كالسكر والعسل (**ومرارة المر**) كالخل والخمر (**لا يعرف إلا بالذوق**) لعدم ما يدل عليهما (**كما حكي أن عنيناً**) من لا يقدر الجماع (**كتب إلى صاحبه**) حبيبه (**عرِّفني**) مفعول كتب (**لذة المجامعة كيف تكون**) أي لذة المجامعة (**فكتب**) أي الصاحب (**في جوابه: يا فلان إني كنت إلى الآن حسبتك عنيناً فقط**) يعني كنت عارفاً عنتك فقط (**والآن عرفت أنك عنين وأحمق**) يعني لست بعنين فقط بل عنين وأحمق (**لأن هذه اللذة**)

[illegible]

الجماعية **(ذوقية)** معرفتها مختصة بالذوق **(إن تصل)** إذا وصلت إليها **(تعرف)** أي عرفت عند الوصلة **(وإلا لا يستقيم وصفها بالقول والكتابة)** وهذه تنظير المعقول بالمحسوس، يعني مريد تحصيل تلك اللذات يسعى بقوة في تحصيل أسبابها بكسر النفس وقهرها وصدق المجاهدة معها ولا يبعد أن يراد من العنين من لا يعرف لذة المعرفة والوصلة ومن لذة المجامعة لذة الوصلة إليه تعالى فافهم.

عناصر الكمال

أيها الولد: بعض مسائلك من هذه القبيلة وأما البعض الذي يستقيم الجواب له فقد ذكرنا في إحياء العلوم وغيره ونذكر ها هنا نبذاً منه ونشير إليه فنقول: قد وجب على السالك أربعة أمور، أول أمر: اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة.

والثاني: توبة نصوح لا ترجع بعده إلى الزلة.

عناصر الكمال

أيها الولد: (بعض مسائلك من هذه القبيلة) أي الذي لا يستقيم الجواب عنها لكونها من الوجدانيات والذوقيات **(وأما البعض الذي يستقيم الجواب له)** لعل المراد غير ما ذكر سابقاً لئلا يلزم كون ما سبق مما لا يسأل إذ كل ما في الرسالة جواب لمسائله **(فقد ذكرنا)** تفاصيله **(في إحياء العلوم وغيره ونذكر ها هنا نبذاً منه)** أي شيئاً قليلاً مما يستقيم الجواب إذ الرسالة لا تتحمل الكل لكثرته والظاهر من ذلك جميع ما سيذكره فتأمل **(ونشير إليه)** أي نبين إجمالاً وإيجازاً

(فقول: قد وجب على السالك أربعة أمور، أول أمر) الذي يستقيم جوابه يعني ذلك أمور متعددة الأول **(اعتقاد صحيح)** وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة **(لا يكون فيه بدعة)** كاعتقاد الفرق الضالة المشار إليه في قوله عليه السلام: «**ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»، وكاعتقاد غلاة الصوفية في بعض الأمور.

(والثاني: توبة نصوح) لعل قوله **(لا ترجع بعده إلى الزلة)** إشارة إلى تفسير النصوح، وقوله إلى الزلة إشارة إلى أنه شرط في التوبة الندم على جميع الذنوب وعلى الزلة التي هي أدنى الصغيرة. ثم التوبة على قسمين: الأوّل: توبة

. . . .

الخواص هي عن الأفكار الدنياوية ووساوسها وعن العمل بالرخص عند إمكان العمل بالعزائم وتوبة أخص الخواص هي الرجوع من اشتغال القلب بغير ذكر الله فلو خطر بالقلب ولو لحظة غير الله تعالى تابوا من ساعته كمرتكب الكبيرة فهم يستغرقون بمطالعة الله تعالى وهذه مقام الأنبياء وأخص الأولياء وإليه يشير قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله سبعين مرة».

والثاني: توبة العوام فهي الرجوع عن جميع المعاصي كبيرة أو صغيرة حق الله تعالى أو حق العبد وتفصيل ذلك على وجه الإجمال الذنوب التي يراد التوبة منها إما حق الله أو حق العبد، فالأول فتوبته إما بالقضاء فقضاء الصلاة إن معلومة عدد الفوائت فيها وإلا فبغلبة الظن من زمان البلوغ كم فاته صلاة والأيسر في النية أول فجر على أول ظهر أو يقال آخر ظهر أو آخر فجر مثلاً، والأحوط أن يقضي الصلوات التي أديت بالكراهة كترك تعديل الأركان لكن بعد قضاء الفائتة المقطوعة ولا يغتر على الوصية بإسقاط الصلاة إذ لم يثبت ذلك بواحد من الأدلة الشرعية بل بناء ذلك على مجرد حسن ظن بالله تعالى فليس بمقطوع بل ليس بمظنون بل أمر احتياطي، وكذا فوائت الزكاة وصدقة الفطر والنذر والضحايا يقضيها أيضاً، وكذا يقضي فوائت الصوم إما بلا كفارتها أو معها، وإن استطاع إلى الحج يأتي به، وأما نحو الزنا واللواطة والكذب وشرب الخمر فتوبتها ندامة صادقة وعزم على أن

لا يعود أبداً ولو عند فرصة.

وأما الثاني، أي حق العبد إما مالي كالسرقة والغصب والأكل بلا إذن والإتلاف إما باليد أو بشهادة الزور أو بالسعي إلى ظالم وإن صدر أمثال ذلك في زمان الصباوة إذ الصبي مأخوذ بالغرامات المالية فتوبة ذلك الاستحلال والاسترضاء وإن لم يوجد صاحب الحق فإن مات فالاستحلال بالورثة إن كان وإلا سواء لم يكن له وارث أو لم يعلم المالك فيعطيه أو قيمته إن هالكاً إلى الفقراء بنية أن يكون وديعة عند الله يوصل إلى صاحبه يوم القيامة، وإما غير مالي فهو أيضاً إما بدني كالضرب والاستخدام بلا رضاء أو قلبي كالشتم والغمز والاستهزاء فكلاهما الاستحلال وإن لم يكن فيتضرع إلى الله تعالى ويدعو ويتصدق به لمن له الحق

الثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق.

والرابع: تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدي به أوامر الله تعالى......

فيرجو من الله تعالى إرضاءه. والاستحلال المبهم مختلف فيه، لعل الأصح إن عين نفس الحق وأعلم صاحب الحق هل يرضى أو لا، أما حق الحيوان ضرباً أو تحميلاً فوق طاقته أو منع علفه فمشكل جداً كحق الكافر.

(**الثالث: استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق**) وقد عرفت آنفاً تفصيله، فالمقابلة ككمال العناية والاهتمام بشأنه إذ حق العبد أصعب من حق الله تعالى بأضعاف مضاعفة ولهذا قال في «تذكرة القرطبي»: يقال لو أن رجلاً له ثواب سبعين نبياً وله خصم بنصف دانق لم يدخل الجنة حتى يرضى خصمه. قيل: يؤخذ بدانق قسط سبعمائة صلاة مقبولة وتعطى للخصم، ذكر القشيري وفيها أيضاً عن المص: ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت أنه لا ينقضي عليك يوم ولا ليلة إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات، وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للعجماء من القرناء، فكيف بك يا مسكين يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات كانت فيها تعبك فتقول أين حسناتي، فيقال لك نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات غيرك

فتقول: يا رب هذه سيئات ما قربتها قط، فيقال: هذه سيئات الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المعاملات والمبايعات والمحاورات والمخاطبات وغيرها.

(والرابع: **تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدي به أوامر الله تعالى**) وكذا قدر ما تعرض به عن نواهيه تعالى إذ قد سبق أن العمل لا يكون بلا علم بل الشيطان يصر زيادة إصرار على العابد سيما الجاهل كما حكي في «الفوائح» أن جماعة هربوا من عبد الواحد لقوة تكليفه إياهم بالمجاهدة فرأى أحدهم بعد مدة فقال: أين كنت، فقال: نحن كل ليلة ندخل الجنة ونأكل من نعمها، فقال: خذوني الليلة معكم. فأخرجوه معهم إلى الفضاء فلما جن الليل إذا بقوم عليهم ثياب

فالزيادة على هذا ليس بواجب ثم من العلوم الآخر ما يكون منه النجاة.

حكي عن الشبلي رحمه الله تعالى أنه خدم أربعمائة أستاذ وقد قرأت أربعة آلاف حديث ثم اخترت منها حديثاً واحداً وعملت به وخليت ما سواه لأني تأملت فوجدت نجاتي وخلاصي فيه..................

خضر وإذا بساتين وفواكه فلما أرادوا أن يتفرقوا قال لهم: أين تذهبون أليس الجنة دار خلود كإدريس عليه السلام. فلما أصبحوا إذا هم على مزبلة بين روث الدواب فتابوا كلهم. وفيه أيضاً عن الديلمي أن واحداً من السالكين رأى في برية طريق مصر الشيطان على عرش بين السماء والأرض فسجد له فظن أنه الرب تعالى ثم حكاه بجماعة من المشايخ فقالوا: هو الشيطان لحديث «إن للشيطان عرشاً بين السماء والأرض» الحديث، فالرجل أعاد صلاته وجدد إيمانه ثم عاد إلى المكان الذي رآه فيه ولعنه وأنكر عليه. وفي بعض النسخ (**فالزيادة على هذا ليس بواجب**) أي ليس بواجب عين بالمعنى الأعم إذ قد يكون فرض كفاية وقد يكون مندوباً. قال في «الأشباه»: تعلم العلم قد يكون فرض عين بقدر ما يحتاج إليه لدينه وفرض كفاية وهو ما زاد عليه لنفع غيره ومندوباً وهو بالتبحر في الفقه وعلم القلب قوله: (**ثم من العلوم الآخر ما يكون منه النجاة**) مشكل إذ لا يتصور

النجاة بغير العلم الشرعي إلا أن يخص الشرعي بالفرعي ويراد من الآخر نحو علم القلب والتصوف أو يراد ما يرخص من النجوم نحو ما يعين على معرفة أوقات الصلاة والقبلة والمنطق قدر الحاجة والعربية على نحو ما فصل سابقاً.

(حكي عن الشبلي رحمه الله تعالى أنه خدم أربعمائة أستاذ) نقل عن ابن الكمال أن لفظ أستاذ مركب أعجمي وأصله است وإذ واست بالفارسية هو الكتاب، وإذ بالذال المعجمة بمعنى الصاحب، كأنه قال صاحب الكتاب **(وقد قرأت أربعة آلاف حديث ثم اخترت منها حديثاً واحداً وعملت به وخليت ما سواه)** أي تركته، الظاهر ترك حفظ ما سواه إذ ترك المعنى ليس بمتصور لكونه مصداقاً لذلك الواحد، وأنه كيف يتصور ترك حديث النبي عليه الصلاة والسلام، فمعنى قوله: **(لأني تأملت فوجدت نجاتي وخلاصي فيه)** أي في ذلك الواحد

وكان علم الأولين والآخرين كله مندرجاً فيه، فاكتفيت به وذلك أن رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه: «اعمل لدنياك بقدر مقامك فيها واعمل لآخرتك بقدر مقامك فيها..............................

لكون الكل مندرجاً في ذلك الواحد كما يدل عليه قوله: **(وكان علم الأولين والآخرين كله)** تأكيد معنوي للعلم الظاهر من الأولين الأمم الخالية والشرائع السابقة، ومن الآخرين علماء هذه الأمة سلفاً وخلفاً **(مندرجاً فيه، فاكتفيت به وذلك)** أي الحديث الواحد **(أن رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه: «اعمل لدنياك)** من تحصيل الأموال واكتساب الأملاك بأنواع التجارات **(بقدر مقامك فيها)** بالنسبة إلى بقاء الآخرة كما يشهده المقابلة والمتناهي عند غير المتناهي يكاد أن يكون ملحقاً بالعدم، وقدر في بعض الأحاديث بوثبة أرنب. وفي الحديث: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور» فالعاقل لا يعمل للدنيا إلا قدر ما يدفع ضرورته وحاجته من نفقة نفسه وعياله فإن زاد يتصدق إلى أحوج الفقراء سيما الصلحاء منهم ولهذا قال عليه السلام: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء»**.

وروي عنه عليه السلام: «**إن في صحف موسى: عجبت لمن أيقن بالموت**

ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن رأى وعلم فناء الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها». وفي «أطواق الذهب»: ولا تمدن عينيك إلى زخارفها ولا تبسط يدك إلى مخارفها. وفيه أيضاً: فلا تطمع في الدوام وابصر الأقوام هل ينالون في الدنيا دولاً ولا يبغون عنها حولاً. وعن يحيى بن معاذ: الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق منه شيئاً يأخذك، شعر:

قليل عمرنا في دار دنيا ... ومرجعنا إلى بيت التراب

لها ملك ينادي كل يوم ... لدوا للموت وابنوا للخراب

(واعمل لآخرتك بقدر بقائك فيها) والبقاء غير متناه فالعمل لها يقتضي استغراق العمر بالطاعة والتقوى والعفة والاستكانة بالخوف والخشية ظاهراً وباطناً بأداء الفرائض والواجبات وبمواظبة السنن والمستحبات وبترك المحرمات

واعمل لله بقدر حاجتك إليه واعمل للنار لقدر صبرك عليها».

فوائد

أيها الولد: إذا عملت بهذا الحديث لا حاجة لك إلى العلم الكثير، وتأمل في حكاية أخرى وهي: أن حاتم الأصم كان من أصحاب الشقيق البلخي. . . . .

والمنكرات وباجتناب البدع والشبهات فإن العاقل يختار ما يبقى على ما يفنى بل يجتهد أن يزيد طاعة كل يوم على ما قبله على ما روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما: من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شراً من أمسه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خير له.

(واعمل لله بقدر حاجتك إليه) وقدر الحاجة إليه أخروياً ودنيوياً مما لا ينحصر في عدد، والعمل المناسب له تعالى أن يجعله كذلك فإذا لم يمكن ذلك للإنسان فيصرف غاية جهده في الطاعات والعبادات لا سيما في الأذكار والأوراد والتلاوات بالتأني والتدبر والخشوع إلى أن يترقى من عالم الرجس إلى ذروة عالم القدس بالانخلاع عن الصفات السفلية.

(واعمل للنار لقدر صبرك عليها) فإذا لم تقدر على النار ساعة فلا تقرب إلى المعاصي ذرة واحفظ أوقاتك عن مقتضياتها وراقب على نفسك فإنها أسدك إن أهملتها تفترسك.

فوائد

أيها الولد: (إذا عملت بهذا الحديث) من البداية إلى النهاية بأن تتأمل حقائق معانيها ودقائق أسرارها **(لا حاجة لك إلى العلم الكثير)** لكونه من جوامع الكلم يشتمل جميع أحكام الشرع أصولها وفروعها وعزائمها ورخصها فلا تحتاج إلى نصيحة أخرى لكن فلنذكر قصة لطيفة لها مدخل لهذا الحديث من حيث التوضيح والتأييد والتأكيد والتثبيت.

(وتأمل في حكاية أخرى) الأولى أن يترك قونه أخرى إلا أن يقال المراد في حكاية هي نصيحة أخرى **(وهي أن حاتم الأصم كان من أصحاب الشقيق البلخي**

رحمهما الله تعالى فسأله يوماً قال: صاحبتني منذ ثلاثين سنة ما حصل لك فيها؟ قال: حصلت ثماني فوائد من العلم وهي تكفيني منه لأني أرجو خلاصي ونجاتي فيها، فقال شقيق: ما هي؟ قال حاتم: الفائدة الأولى: أني نظرت إلى الخلق فرأيت لكل واحد منهم محبوباً ومعشوقاً يحبه ويعشقه وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت وبعضهم إلى شفير القبر ثم يرجع كله ويتركه فريداً ووحيداً ولا يدخل معه في قبره منهم أحد، فتفكرت وقلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل معه في قبره ويؤنسه فيه ويدفع وحشته فما وجدته إلا الأعمال الصالحة فأخذتها محبوبة لي لتكون لي سراجاً في قبري تؤنسني فيه ولا تتركني فريداً.

رحمهما الله تعالى فسأله) أي الشقيق سأل الحاتم **(يوماً قال: صاحبتني)** وخدمتني **(منذ ثلاثين سنة ما حصل لك فيها)** أي أي شيء حصلت فيها **(قال)** الخاتم **(حصلت ثماني فوائد من العلم وهي تكفيني منه)** أي من العلم، يعني إن عملت بها لا احتياج إلى علم آخر **(لأني أرجو خلاصي ونجاتي فيها)** أي في الثمانية **(فقال شقيق: ما هي؟ قال حاتم الفائدة الأولى: أني نظرت إلى الخلق)** نظر عبرة وتجربة **(فرأيت لكل واحد منهم محبوباً ومعشوقاً يحبه ويعشقه)** كالأولاد

والأزواج والأموال والمناصب والأحباء (**وبعض ذلك المحبوب يصاحبه إلى مرض الموت**) فيتركه لليأس عن حياته إذ حبه لغرض دنيوي فإذا يئس ينقطع عنه أو عند المرض ينقطع حب المريض إياه كالأموال ونحوه لعلمه أنه لا يذهب معه بل يبقى ملكاً للغير (**وبعضهم إلى شفير القبر**) أي طرفه (**ثم يرجع كله ويتركه فريداً وحيداً ولا يدخل معه في قبره منهم أحد، فتفكرت**) في نفسي (**وقلت: أفضل محبوب المرء ما يدخل معه**) أي المرء (**في قبره ويؤنسه فيه ويدفع وحشته**) بل يدفع المضرة عنه (**فما وجدته إلا الأعمال الصالحة**) إذ من البديهي أن الأحباء والأموال وسائر السعايات تبطل بالموت والباقيات هي الصالحات (**فأخذتها**) أي الأعمال الصالحة (**محبوبة لي**) ومن شرط المحبة أن يداوم على الحبيب ويتحمل أذاه ويتعب في طريقه ويخاصم أعداءه ويحافظ على حقوقه (**لتكون لي سراجاً**) وضياء (**في قبري**) ورفيقاً أنيساً (**تؤنسني فيه ولا تتركني فريداً**) في مضائقة القبر وظلمته، كما روي

. . . .

عنه ﷺ: «**أن المؤمن الصالح إذا مات فرفع من بيته استقبله جنود الله تعالى من الملائكة ببشارة من الله تعالى فيصرخ إبليس صرخة يجتمع منها جنوده فيقول: كيف تخلص هذا منكم؟ فيقولون: كان عبداً معصوماً فإذا وضع في قبره أتت الصلاة عند رأسه والصوم عند رجليه ومشيه إلى المسجد وطاعاته وذكره عن يمينه وشماله وتنحى الصبر في ناحية القبر وهو أفضل الأعمال، فيبعث الله تعالى عنقاً من النار فيأتيه من قبل رأسه فتقول الصلاة: إليك عني فإنه كان محافظاً عمره عليَّ فلا يأتيه من ناحية من نواحيه إلا وجد منعة ثم يكفها الله تعالى عنه برحمته فيقول الصبر للأعمال: لقد رأيت ما فعلتم فلولا ذلك لباشرته فأنا ذخر له عند الصراط والميزان**».

ومما يناسب ذلك في «شرح الصدور» عن تفسير جوير أنه حضر وفاة مورق العجلي فلما سجا وقلنا: قد قضى، رأينا نوراً ساطعاً من عند رأسه حتى خرق السقف ثم رأينا نوراً آخر من عند رجليه كالأول ثم رأينا من وسطه فبعد ساعة

كشف وجهه فقال: هل رأيتم شيئاً، قلنا: نعم، قال: قد كنت أقرأ كل ليلة ألم السجدة فالنور الذي عند رأسي أربع عشرة آية من أولها وما عند رجلي أربع عشرة آية من آخرها وما في وسطي آية السجدة نفسها صعدت تشفع لي وبقيت سورة تبارك تحرسني، ثم قضى.

وفيه أيضاً عن إخراج ابن أبي الدنيا من طريق آخر عن مورق العجلي وكذلك أيضاً وقع على مطرف بن عبداب لمداومته أيضاً في كل ليلة على ألم السجدة وتبارك، ويقرب إلى هذا المعنى ما في «تذكرة القرطبي» عن زيد بن أسلم أنه قال: بلغني أن المؤمن يتمثل له عمله بوم القيامة في أحسن صورة وجهاً وثياباً وريحاً طيباً فيجلس إلى جنبه كلما أفزعه شيء أمنه وكلما خوفه شيء هون عليه فيقول له: جزاك الله خيراً من أنت، فيقول: أما تعرفني فقد صحبتك في قبرك ودنياك أنا عملك كان والله حسناً وكان طيباً فلذلك تراني حسناً طيباً طال ما ركبتك في الدنيا فاركبني الآن.

والفائدة الثانية: أني رأيت الخلق يقتدون أهواءهم ويبادرون إلى مرادات أنفسهم فتأملت في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النَّازعَات: الآيتان 40 -41]. . . . .

(**والفائدة الثانية: أني رأيت الخلق يقتدون أهواءهم**) أي ينقادون ويطيعون على دواعي أهوائهم (**ويبادرون إلى مرادات أنفسهم فتأملت في قوله تعالى:** ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النَّازعَات: الآيتان 40 – 41]) الهوى ميل النفس إلى مقتضيات الطبع ولهذا كان عادة أولياء الله مخالفة النفس في جميع ما تشتهي حتى في نحو المباحات كما حكي عن السري أن نفسي تطالبني منذ ثلاثين أن أغمس جزراً في دبس فما أطعمتها. وقال ابن عطاء: النفس لا تألف الحق أبداً. وقال سهل: ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس. وقيل: الراحة هو الخلاص من أماني النفس.

وحكي عن بعض المشايخ أن نفسه تشتهي أكل بيض فمنعها منذ ثلاثين سنة

فغلبت في مفازة وقصد أكله فتوجه نحو قرية فإذا أهل القرية أخذوه وضربوه كثيراً وحبسوه على زعم فعل تهمة بينهم، ثم رآه من علمه فأخبرهم هو الشيخ الفلاني فخلوا سبيله واعتذروا إليه ثم أحضروا له طعاماً فيه بيض فلم يأكل وقال: ليس لكم فيما فعلتم قباحة بل القباحة قصدي لذلك.

وفي «رسالة القشيري» فطم النفس عن المألوفات وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات هي أصل جميع المجاهدات. ومن غوامض آفات النفس ركونها إلى استحلاء المدح فإن تحسى منه جرعة حمل السماوات والأرضين مثلاً على أشفاره، شعر:

طلب العلم جمال وشرف ... وهوى النفس وبال وتلف
فاطلب العلم وكن ذا أدب ... واترك النفس وكن خير خلف

شعر آخر:

لقد لسعت حية الهوى كبدي ... فلا طبيب لها ولا راق

قال بعض الملوك لبعض المشايخ: هل لك من حاجة، فقال: كيف أطلب

وتيقنت أن القرآن حق صادق فبادرت إلى خلاف نفسي وتشمرت لمجاهدتها وما اتبعتها بهواها حتى ارتاضت لطاعة الله تعالى وانقادت.

الفائدة الثالثة: أني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا ثم يمسكه قابضاً يده.........................

منك حاجة وأنت أسير غلامي، قال: كيف، قال: النفس عبدي تطيعني وأنت أسير لها تطيعها وتنفذ أحكامها وتجري أمورها فيك وتتصرف كيف شاءت في حقك. وقال آخر كذلك فقال: كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك، قال: كيف، قال: من أنت عبده فهو عبد لي، قال: كيف ذلك، قال: أنت عبد شهوتك وهواك وبطنك وفرجك وقد ملكت هؤلاء كما في بعض التفاسير.

(**وتيقنت أن القرآن حق صادق فبادرت**) أي سارعت وسابقت (**إلى خلاف نفسي**) كما سمعت من قصص المشايخ آنفاً (**وتشمرت**) يعني تهيّأت واستعددت

(لمجاهدتها) التي هي الجهاد الأعظم من مجاهدة أهل الحرب كما مر **(وما اتبعتها)** أي النفس **(بهواها)** لتيقن الخسران والوبال **(حتى ارتاضت)** أي إلى أن رضيت **(لطاعة الله تعالى وانقادت)** فإن ذلك وإن كان أمراً في البدايات والأوائل لكن ذلك أحلى من السكر في النهايات والأواخر لأن صدق المجاهدة يوصل صاحبه من حضيض البشرية إلى ذروة الملكية، فإن القلوب مستورة بظلمات المعاصي لا يرى شيئاً من أنوار الغيوب لعدم مبالاته من الآثام والذنوب فإذا أزيل يقطع عقبات النفس ويستأهل تجليات أنوار القدس فعند ذلك يحصل للنفس ملك لا يفنى وسلطنة لا تبلى فاللذة والراحة ليس إلا بالعبادة والذكر.

(الفائدة الثالثة: أني رأيت كل واحد من الناس) أي من عوامهم **(يسعى في جمع حطام الدنيا)** أي فوائدها ومنافعها من الأملاك والأموال بل المناصب والأولاد والأحباء لغرض الدنيا **(ثم يمسكه)** أي الحطام **(قابضاً يده)** الظاهر يجمع الدنيا ثم يبخل ولا يتصدق ولا يعطي المحاويج ولا يصرف إلى وجوه البر ومصارف الخيرات والحسنات.

قال في «الفتاوى الفقهية»: إن الاكتساب فوق ضرورة حاله لأجل التصدق

فتأملت في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النّحل: الآية 96] **فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله ففرقته بين المساكين ليكون ذخراً لي عند الله تعالى.**

والفائدة الرابعة: إني رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه في كثرة الأقوام والأنصار والعشائر..........................

أفضل من التفرغ للعبادة عند بعض وأيضاً التصدق لمن حج مرة أفضل من الحج نافلة على وجه، وأيضاً اختلف في الترجيح أن الغني الشاكر أفضل أو الفقير الصابر **(فتأملت في قوله تعالى:** ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ [النّحل: الآية 96]) أي ينقطع وينتهي (﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النّحل: الآية 96]) الظاهر أن المراد مما عند الله تعالى نحو جنس التصدق فإن المال ما دام في يد صاحبه يد أمانة وعارية وعلى خطر ليس بيد ملك إذ ما أكله يفنى وما لبس يبلى وعند موته يكون ملكاً لورثته فأنت خديمهم وأجيرهم بلا أجرة ولا احتمال تلف **(فبذلت)** أي صرفت **(محصولي)**

ومجهودي (**من الدنيا لوجه الله**) أي لرضائه (**ففرقته**) أي ذلك الحطام (**بين المساكين ليكون ذخراً**) وزاداً (**لي عند الله تعالى**) ليس المراد المنع عن التجارة والكسب بالكلية إذ الكسب لنفسه وعياله فرض ولهذا يقال: طلب المعاش أحب من زوايا المساجد.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أيما رجل طلب شيئاً إلى مدينة من مدائن المسلمين صابراً محتسباً فباعه لسعر يوم كان عند الله عز وجل بمنزلة الشهداء، ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المُزمّل: الآية 20].

وقال ﷺ: «**من طلب الدنيا حلالاً تعففاً عن المسألة وسعياً على عياله وتعطفاً على جاره لقي الله وجهه كالقمر ليلة البدر**». وقال عليه السلام: «**التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين**» كما في بعض التفاسير.

وفي خطبة الأربعين: من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة، من بات تعباً في كسب الحلال وجبت له الجنة والله عنه راض.

(**والفائدة الرابعة: إني رأيت بعض الخلق ظن**) مفعول ثان لرأيت، وقوله: (**شرفه**) مفعول ظن (**وعزه في كثرة الأقوام**) جمع قوم (**والأنصار والعشائر**) جمع

فاغتر بهم وزعم آخرون أنه في كثرة الأموال والأولاد فافتخروا بها وحسب بعضهم أنه في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم واعتقدت طائفة أخرى أنه في إتلاف المال وإسرافه وتبذيره وتأملت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية 13]. . . . .

عشيرة بمعنى قبيلة (**فاغتر بهم**) من الغرور (**وزعم**) الزعم بمعنى الاعتقاد الباطل (**آخرون أنه**) أي العز والشرف (**في كثرة الأموال والأولاد فافتخروا بها وحسب بعضهم أنه**) أي العز والشرف (**في غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم**) أي قتلهم بغير حق (**واعتقدت طائفة أخرى**) هذا الاعتقاد أيضاً باطل لعل الكلام مبني على التفنن (**أنه**) أي العز والرفعة (**في إتلاف المال وإسرافه وتبذيره**) إلى غير محله وإعطائه وراء الحد المشروع (**وتأملت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ**

عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية 13]) يعني العز الحقيقي والرفعة الحقيقية ما يكون عند الله تعالى إذ ما عند الناس شبحي مجازي لا أصل له والعز عند الله تعالى إنما هو بالتقوى وهو الكف عن جميع المحظورات إلى ترك الشبهات وترك ما يريبه إلى ترك ما لا بأس به، بل يتجرد لخدمة مولاه فلا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلبسه ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنه يفارقها ولا يصرف إلى غيره تعالى نفساً واحداً من أنفاسه فحينئذ يكون صديقاً. ويدخل في التقوى الورع والعفة فإنها عبارة عن امتناع مقتضى الشهوات فسبب الجميع الخشية فهي سبب إلى لقائه تعالى وقربه والأنس به ولا يتيسر ذلك إلا بانقلاع حب الدنيا من القلب وهذا لا يكون إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها وهذا إنما يكون بقمع النفس عن شهواتها على ما في بعض التفاسير.

وفي وصايا بعض العارفين لبعض أصحابه: أوصيك بما أوصى به الله تعالى إلى أنبيائه وأوليائه وكافة أحبائه وعامة عباده لكونه غاية القرب إليه ونهاية ما أكرم لديه فليس شيء أعز عنده ولا أفضل لعبده بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النِّساء: الآية 131] فعليك أيها الولد الأعز الأكرم ببذل جهدك وغاية سعيك ونهاية بغيك في تحقيق حقائق التقوى وتدقيق

فاخترت التقوى واعتقدت أن القرآن حق صادق وظنهم وحسبانهم كلها باطل زائل.

والفائدة الخامسة: أني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً ويغتاب بعضهم بعضاً فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم فتأملت في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزّخرُف: الآية 32] في الحياة الدنيا، فعلمت أن القسمة كانت من الله تعالى في الأزل..............

أسرارها فإن لها ظاهراً وباطناً وحقاً وحقيقة فمن بلغها فقد ملك سلطنة سرمدية وملكاً أبدياً.

وفي محاضرة قره باغي روي عنه ﷺ أنه قال لمعاذ رضي الله عنه: «**أوصيك**

بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه بالقرآن». (**فاخترت التقوى واعتقدت أن القرآن حق صادق**) لا اعتقاداتهم الباطلة وهو معنى قوله: (**وظنهم وحسبانهم**) عطف تفسير له إذ الحسبان بمعنى الظن (**كلها باطل زائل**).

(**والفائدة الخامسة: أني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً ويغتاب بعضهم بعضاً فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم**) لا يخفى أن المقام مبني على الأكثر وإلا فظاهر أن الذم والغيبة قد يكونان لمن ليس له مال ولا جاه ولا علم.

(**فتأملت في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾** [الزّخرُف: الآية 32]) يعني قدرنا في الأزل قسمتهم وما يكون سبباً لمعاشهم يعني أرزاقهم (**في الحياة الدنيا**) الجار متعلق بمعيشتهم لا يخفى أن هذا إنما يدل على ترك الحسد لأجل المال والمطلوب ترك الحسد للعلم والجاه أيضاً فالمقصود من الاستشهاد ليس إلا معظم المطالب أو الكلام مبني على الاكتفاء والتمثيل (**فعلمت أن القسمة** من الرزق (**كانت من الله تعالى في الأزل**) لا يخفى أن الظاهر يقتضي عدم فائدة الاكتساب في تحصيل الرزق بل تكثيره وقد قرر في الفقهية بفرضية بعض الاكتساب وأن التجربة شاهدة بنفع الاكتساب وقد عدوا التجربيات الصادقة من

فما حسدت أحداً ورضيت بقسمة الله تعالى.

والفائدة السادسة: أني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضاً لغرض وسبب فتأملت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فَاطِر: الآية 6] **وعلمت أنه لا يجوز عداوة أحد غير الشيطان.**

القطعيات التي توجب تأويل النصوص الظاهرة في خلافها على أن المراد من القسمة الأزلية في النص تقديرها مع أسبابها من الاكتساب بناء على قاعدة الأعمال، نعم لا فائدة للحسد في أمر الرزق وإن كان لسعي العبد مدخل (**فما حسدت أحداً**) لعدم فائدة الحسد في أمر الرزق (**ورضيت بقسمة الله تعالى**).

(**والفائدة السادسة: أني رأيت الناس يعادي**) من العداوة والخصومة (**بعضهم بعضاً لغرض**) كالمال والرياسة والجاه بل من العلم وهو ظاهر، ففي الحقيقة تتحد مع الفائدة الخامسة لكن لما كان فيه خصوصية مخصوصة ووجه قوي بين الأنام أفردها مقابلاً لها (**وسبب**) عطف تفسير للغرض (**فتأملت في قوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فَاطِر: الآية 6]) نصب نفسه لعداوة الإنسان حين طرد عن رحمة الله تعالى ولعن لعنة أبدية لسبب امتناعه عن سجدة أبينا آدم عليه السلام فكان ذئباً للإنسان كذئب الغنم إنما يجد فرصة يهلكه ويتلفه كما في «جامع الصغير»: إن الشيطان ذئب الإنسان، الحديث.

(**وعلمت أنه لا يجوز عداوة أحد غير الشيطان**) وأنت خبير بأن ما يدل عليه النص اتخاذ الشيطان عدواً وهو ليس بمطلوب، والمطلوب عدم اتخاذ غير الشيطان عدواً وليس بلازم للنص على أن الكفار لا سيما حربياتهم بل الفساق والأشقياء مما يتخذ عدواً إلا أن يراد من الشيطان الأعم بعموم المجاز أو المراد من العدو ما لا يرجى زوال عداوته أو العداوة الكاملة التي معظم قصده الدين. ولا يبعد بناء الكلام على المفهوم المخالف كالسكوت في معرض البيان ومفهوم اللقب فافهم.

ويمكن أن يقال: إن عداوة الغير عند عداوة الشيطان كالعدم فكان العدو هو الشيطان فلا يليق لأحد أن يتخذه عدواً ما لم يدفع عداوة الشيطان.

والفائدة السابعة: إني رأيت كل أحد يسعى بجد ويجتهد بمبالغة لطلب القوت والمعاش بحيث يقع به في شبهة وحرام................

(**والفائدة السابعة: إني رأيت كل أحد يسعى بجد**) يعني يصرف جميع مقدوره (**ويجتهد بمبالغة**) يعني فوق المأمول (**لطلب القوت**) أي ما يقتات به أي ما يؤكل وكذا ما يلبس وما يسكن (**والمعاش**) عطف تفسير له (**بحيث يقع به في شبهة وحرام**) يعني يكون فرط اجتهاده داعياً إلى تناول نحو الشبهات والمحرمات إلى ارتكابهما طمعاً في تكثير الأموال فلا يراعي أسباب الحل

فضلاً عن الطيب والكمال في الدين إنما يكون بالطيب لا بالحل فقط.

قال المص في «الإحياء»: ولا طريق إلى لقاء الله تعالى إلا بالعلم والعمل ولا يمكن المواظبة عليها إلا بسلامة البدن ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والتناول منها على قدر الحاجة على الأوقات، فمن هذا قال بعض السلف: إن الأكل من الطيب من الدين وعليه نبّه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: الآية 51] انتهى.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: إني لأدع سبعين باباً من الحلال مخافة أن أقع في الحرام. وفي «شرح أربعين النووي» للشيخ زاده: واختلف في الطيب فقيل هو مرادف للحلال، وقيل هو الحلال الخالي عن الشبهة، وقيل ما لا يعصى في تحصيله ولا يرتكب نهياً شرعياً، وقيل ما لا يحصل بالحرف الدنية كالحجامة والدباغة وغير الطيب على خلافه في التفسيرات انتهى.

وفي بعض المواضع عن الزاهدي عن فتاوى محمد بن الفضل: الحلال معلوم وأما الطيب فمن أخذ أرضاً مزارعة محافظاً على الصلوات في مواقيتها بالجماعة لكنه أخر صلاة واحدة عن وقتها لاشتغاله بالزراعة لا يكون زرعه طيباً وكذا لو زرعه أو غرس بغير طهارة أو منع الأجرة من الأجير أو أخرها بعدما جف عرقه، وكذا إذا أخر أداء الثمن بعد حلول الأجل وأداه متفرقاً بدون رضاء البائع انتهى.

وفي بعض الكتب قال ﷺ: «**يا علي من أكل الحلال صفا دينه ورق قلبه ودمعت عيناه من خشية الله تعالى ولم يكن لدعوته حجاب، ومن أكل الشبهات اشتبه**

ويذل نفسه وينقص قدره فتأملت في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: الآية 6] **فعلمت أن رزقي على الله تعالى وقد ضمنه فاشتغلت بعبادته وقطعت طمعي عما سواه.**

الفائدة الثامنة: **إني رأيت كل أحد يعتمد لي شيئاً من مخلوق.......**

عليه دينه ودق قلبه وضعف يقينه وحجب الله تعالى دعوته وقلّت عبادته». **(ويذل نفسه وينقص قدره)** أي يجعل نفسه حقيراً وذليلاً في طلب المعاش ليس بحسب الدنيا فقط بل بحسب الآخرة أيضاً لتأخره عن فضائل العبادات وإكمال النفس بوجوه

الطاعات للاشتغال بتحصيل ذلك المعاش. (**فتأملت في قوله تعالى**: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: الآية 6] **فعلمت أن رزقي على الله تعالى وقد ضمنه فاشتغلت بعبادته**) أي الله تعالى (**وقطعت طمعي عما سواه**) من أمر المعاش وتحصيل الرزق.

فإن قيل: لو كسب بمجرد التصدق والإنفاق فضل كسبه هل يكون الكسب أفضل عبادة، قلت: قال في «التاترخانية»: الامتناع من الكسب أولى من الاشتغال به على قصد الإنفاق وإن الصبر على الفقر أفضل من الشكر على الغنى الظاهر من الامتناع للتفرغ على العبادة. قال بعضهم: اجتهادك فيما ضمن الله لك وتقصيراتك فيما طلب الله منك دليل على انطماس البصيرة منك.

(**الفائدة الثامنة: إني رأيت كل أحد**) الظاهر أن لفظ كل في هذه إنما هي للكثير لا للتسوير وإلا فظاهر المنع (**يعتمد لي شيئاً من مخلوق**) يعني يفتر ويعتني إلى ذلك الشيء فيوقع نفسه إلى تحصيله وتكميله ولا يبالي طاعة ربه ورضا مولاه وتعمير أوقاته بل يضيع عمره في هوى ذلك الشيء والعمر جوهر عزيز لا يعادله قيمة بل كل نفس واحد من أنفاسه لا يناله الإنسان بخزائن ملوك الدنيا ولا يقدر عودته ولا يمكن عوضه وجبرته ولا يمكن قضاء وظيفته إذ كل نفس موظف فهو رأس مال المؤمن العاقل يكتسب به أسباب السعادة الإلهية السرمدية، فإذا صرف لمثل هذه الأمور الخبيثة الدنيوية فهو غبن فاحش وخسران عظيم ومصيبة لا يقدر إلى تداركها جميع الأولين والآخرين إذ العمر محسوب ووقت الأجل

وبعضهم إلى الدنيا والدراهم وبعضهم إلى المال والملك وبعضهم إلى الحرفة والصناعة وبعضهم إلى مخلوق مثله فتأملت في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطّلَاق: الآية 3] **فتوكلت**

غير معلوم معين (**وبعضهم**) الظ بالفاء على أن يكون تفصيلاً لهذا المجمل (**إلى الدنيا والدراهم**) هكذا ما عندنا من النسخة لعل الأوفق إلى الدنانير والدراهم ولكن لا ضير لأنه ح يكون من عطف الخاص على العام. قال في «العوارف»:

لا يكمل شغل العبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة **(وبعضهم إلى المال والملك)** وقد كان حب ذلك قطع طريقه تعالى للمؤمن **(وبعضهم إلى الحرفة والصناعة)** إذ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: الآية 53] وكل قوم بما يألف به يتلذذون **(وبعضهم إلى مخلوق مثله)** كالأمراء والملوك وكل من له رياسة وقوة بين قوم **(فتأملت في قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: الآية 3]) أي يكفيه ولا يجعله محتاجاً إلى غيره ومن أصدق المجربات أن من توكل على الله وفوض جميع أمره إلى الله تعالى وتفرغ على طاعة الله تعالى وتقاعد عن معصية الله تعالى سخر الله له رزقه وهيأ أسبابه ويلهم عباده بالعطاء والإحسان إليه بل بفضل سماوي خلاف العادة، كما حكي أن ذا النون اصطاد سمكة فطرحها بين يدي ابنة صغيرة له فنظرتها الابنة تحرك شفتيها فطرحتها في الماء، فقال أبوها: لم ضيعت كسبي، قالت: إني لا أرضى أن آكل خلقاً يذكر الله تعالى، فقال: إيش نفعل، فقالت: نتوكل. فلما صار وقت العشاء أنزل الله عليها مائدة من السماء مملوءة بأنواع الأطعمة ثم لم ينقطع في كل ليلة فحسب إنها منه ثم بعد زمان لما توفيت الابنة انقطعت المائدة وحكم أنها لتوكل الابنة (﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: الآية 3]) قال القاضي تقديراً أو أجلاً لا يتأتى تغييره وهو بيان لوجوب التوكل انتهى.

فإن من علم أن الله تعالى يبلغ ما يريده وينفذ أمره فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل إلا أنه من توكل عليه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً والله تعالى جعل لكل شيء من الشدة والرخاء والموت والحياة ونحوها تقديراً متعلقاً بنفس ذاته وبزمان

على الله وهو حسبي ونعم الوكيل. فقال شقيق: وفقك الله تعالى يا حاتم، إني نظرت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فوجدت الكتب الأربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية فمن عمل بها كان عاملاً بهذه الكتب الأربعة.

وقوعه بجميع كيفياته وأوصافه وأنه تعالى بالغ ذلك المقدر على حسب ما قدره تعالى لم يبق له سوى التسليم والاعتماد على تقديره والتوكل عليه، فلهذا لم

يعطف على قوله: ومن يتوكل، وكذا من علم أنه جعل لكل شيء مقداراً واحداً معيناً أو أجلاً ونهاية ينتهي إليه ولا يتأتى تغييره يضطر إلى التوكل عليه لا محالة، كذا في حاشية شيخ زاده.

(فتوكلت على الله وهو حسبي ونعم الوكيل) فلما ذكر الحاتم هذه الثمانية **(فقال شقيق:)** محسناً إياه **(وفقك الله تعالى يا حاتم إني نظرت التوراة والإنجيل والزبور)** وقد عرفت من الكلام على النظر بغير القرآن من الكتب السماوية لعل المنع إما من إفراط النظر أو النظر للعمل بالجميع أو التناول والمفضول عند إمكان العمل بالفاضل **(والفرقان، فوجدت الكتب الأربعة)** الإلٰهية بل جميع الكتب ولو صحفاً لكنه اكتفى بما هو مدون لكونه متبوعاً ومشهوراً **(تدور على هذه الفوائد الثمانية فمن عمل بها)** أي الثمانية **(كان عاملاً بهذه الكتب الأربعة)**.

اتخذ لك مرشداً

أيها الولد: قد علمت من هاتين الحكايتين أنك لا تحتاج إلى تكثير العلم، والآن أبين لك ما يجب على سالك سبيل الحق.

العلم، والآن أبين لك ما يجب على سالك سبيل الحق.

اتخذ لك مرشداً

أيها الولد: (قد علمت من هاتين الحكايتين) أي حكاية الشبلي وحكاية حاتم الأصم **(أنك لا تحتاج إلى تكثير العلم)** بل يكفي لك قليل العلم إذ النجاة والوصول إلى رضاء الله تعالى إنما هو بالعمل، فالمقصود هو العمل والعلم إنما هو لأجل العمل فالقدر الذي يعلم به وجوه العمل كاف فالاشتغال وراء الحاجة ليس بلازم بل ليس بأفضل بل الاشتغال إلى العمل الذي هو المقصود الأصلي أفضل من الاشتغال بتفاصيل العلم، ففيه إشارة إلى ترجيح العلم كسفيان الثوري وداود الظاهري وإبراهيم بن أدهم حيث ذهبوا إلى ترجيح جانب العمل وتقاعدوا عن التعمق إلى تدقيقات العلم تعليماً وتصنيفاً وكثرة اجتهاد بعد أن وصلوا رتبة الاجتهاد، وبعضهم رجحوا جانب العلم واشتغلوا توفيره وتكثيره لكن المذكور في الفتاوى: من حصل علم الحال إن ذكياً صاحب قابلية فالسعي بالعلم أفضل، وإن غبياً لا يزيد على سعيه أمراً كثيراً فالعمل في حقه أفضل.

(والآن أبين لك ما يجب على سالك سبيل الحق) كما هو سبيل أولياء الله وطريق المشايخ المتورعين المتشرعين المتسننين يعني لا يجب عليك كثير العلم بل الواجب عليك سلوك سبيل الحق وسبيل الحق أن لا ترضى ولا تقنع بشيء دون الحق لأنه من رضي من الدنيا بالدنيا فهو ملعون ومن رضي من الزهد بالثناء فهو محجوب ومن رضي من الحق بشيء مما دون الحق كائناً ما كان فهو طاغ، فالحذر الحذر عمن سوى الحق كما ورد في القرآن: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ

اعلم أنه ينبغي للسالك من شيخ مرشد مرب ليخرج الأخلاق السوء منه بتربية منه ويجعل مكانها خلقاً حسناً، ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية ليحسن نباته ويكمل ريعه............

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: الآية 162] فالسالك لا يرغب إلى شيء سوى الله

تعالى ويطهر قلبه عن كل شيء غير الله تعالى ويزين جميع أركانه وجوارحه بحدود الله تعالى بأن يكون صادقاً في طلب الله تعالى ومخلصاً في عبادة الله تعالى وفي طلبه وعبادته لا يشرك غير الله تعالى إلى أن لا يطلب شيئاً من غيره ولا يستعين من غيره حتى نحو الملح والماء كما ورد عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: دعاني رسول الله ﷺ وهو يشترط عليَّ أن لا تسأل الناس شيئاً، قلت: نعم، قال: لا ولو سوطك إن سقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه.

ثم أراد أن يبين طريق حصول هذا السلوك فقال: **(اعلم أنه ينبغي للسالك من شيخ)** الشيخ في اصطلاح هذا الشأن هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ إلى حد التكميل فيها بعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها ومعرفته بذواتها وقدرته على شفائها كما يشير إليه كلام المص هنا **(مرشد مرب)** من التربية فطلب هذا الشيخ فهو عين طلب الله تعالى ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المَائدة: الآية 35] الرفيق ثم الطريق من لا شيخ له فشيخه الشيطان لكن لا يعتقد أن الشيخ مقصود فالشيخ كالكعبة يسجدون إليها والسجدة لله تعالى لكن ذلك لا يكون بالتكلف بل بالمحبة والشوق والاحتراق بنار الفراق فمن حصل له ذلك بالعناية الأزلية فيتوب توبة نصوحاً مع الشرائط مع اعتقاد أهل السنة ولا يتوجه إلى الرخص ثم يطلب شيخاً كاملاً كما ذكره **(ليخرج)** ذلك الشيخ **(الأخلاق السوء)** الذميمة الرذيلة **(منه)** أي من السالك **(بتربية منه)** أي الشيخ **(ويجعل مكانها)** أي الأخلاق السوء **(خلقاً)** أي أخلاقاً **(حسناً)** أي حسنة أي الحميدة **(ومعنى التربية)** وحقيقته **(يشبه فعل الفلاح)** أي الأكار والمزارع **(الذي يقلع الشوك)** الذي يضر بقاؤه نبات الزرع **(ويخرج النباتات الأجنبية)** إذ بقاؤها يضعف قوة الزرع **(ليحسن نباته)** أي الزرع **(ويكمل)** أي يقوى ويفوق **(ريعه)** أي

لأن الله تعالى أرسل إلى العباد رسولاً للإرشاد إلى سبيله فإذا ارتحل عليه السلام من الدنيا قد خلف الخلفاء في مكانه حتى إنهم يرشدون الخلائق إلى الله تعالى لأجل هذا المعنى، فلا بد للسالك من شيخ يربيه ويرشده إلى سبيل الله تعالى.

محصوله **(لأن الله تعالى أرسل إلى العباد رسولاً للإرشاد إلى سبيله فإذا ارتحل عليه السلام من الدنيا قد خلف الخلفاء في مكانه حتى إنهم يرشدون الخلائق إلى الله تعالى لأجل هذا المعنى)** قوله: **(فلا بد للسالك من شيخ يربيه ويرشده إلى سبيل الله تعالى)** تكرير للتأكيد إشارة إلى غاية لزوم الشيخ إذ الوصول بلا شيخ صعب ولذا قيل: خذ العلم من أفواه الرجال.

وفي «نفحات الأنس» كان صفي الدين رجلاً صالحاً دائماً في ذكر الله تعالى فرأى ذكره في الواقعة كأنه نور خرج من الفم ودخل في الأرض وبعد الإفاقة تأمل فقال: لا خير فيه لأنه تعالى قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: الآية 10] ثم أخذ الذكر من تلقين شيخ كامل فرأى تلك الواقعة أن ذلك النور صعد إلى السماء وخرقها.

قال أبو علي الدقاق: من لا يربيه شيخ كشجرة نبتت في الصحراء بلا تربية أحد لا تثمر وإن أثمرت لا تكون لذيذة.

صفات المرشد إلى سبيل الله

أيها الولد: وشرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائباً للرسول ﷺ أن يكون عالماً لا أن كل عالم يصلح له وإني أبين لك بعض علاماته على سبيل الإجمال حتى لا يدّعي كل أحد أنه مرشد.

فنقول: هو كل من يعرض من حب الدنيا وحب الجاه. وكان قد تابع لشخص بصير حاوٍ لشروط المشيخة يتسلسل متابعة إلى سيد المرسلين ﷺ وكان

صفات المرشد إلى سبيل الله تعالى

(**وشرط الشيخ الذي يصلح أن يكون نائباً للرسول ﷺ أن يكون عالماً**) بعلوم الشرائع والأخلاق وبصيراً بعيوب النفس (**لا أن كل عالم يصلح له**) أي أن يتخذ شيخاً يقتدي به ومرشداً (**وإني أبين لك بعض علاماته**) ففيه إشارة إلى أن الكل كثير لا يتحمله هذه الرسالة بل ما ألقي إجمالاً يصلح أن يكون دليلاً لما أبقى (**على سبيل الإجمال**) والتفصيل ربما يندرج تحت الإجمال (**حتى لا يدعي كل أحد أنه مرشد**) ولا يتبع على كل أحد ولا يقلد على اعتقاد أنه شيخ مرشد.

(**فنقول**) الشيخ الذي للإرشاد (**هو كل من يعرض من حب الدنيا**) لأنه رأس كل خطيئة إذ جميع المحظورات متولد منه ومنته إليه فمن يريد سلامته عن جميع المحظورات الدينية يعرض عنه لأن عزها ذل وذلها عز ومنحها محن ومحنها منح، وهي دار مشقة وفراق ودار بلاء وفناء وعبور لا دار بقاء ودوام وسرور، أولها ضعف وفتور وآخرها موت وقبور، فانية مشوبة بالمضار والشرور، والآخرة باقية خالصة من الشوائب والمرور عزها باقية أبدية ونعمها صافية سرمدية (**وحب الجاه**) ولو علماً وعبادة بل الإعراض أهم فيهما (**وكان**) ذلك الشيخ (**قد تابع لشخص بصير حاوٍ لشروط المشيخة يتسلسل متابعة إلى سيد المرسلين ﷺ وكان**)

محسناً برياضة نفسه من قلة الأكل والقول والنوم...............

(**محسناً برياضة نفسه**) يعني يفعل الرياضة على وجه حسن (**من قلة الأكل**) بيان

للرياضة إذ يقال: قلة الأكل يوصل صاحبه إلى أعلى عليين كما أن كثرته ينزل صاحبه إلى أسفل السافلين.

وعن ذي النون المصري: لا تسكن الحكمة بمعدة ملئت طعاماً. وقال المص في «منهاج العابدين» عن إبراهيم: صحبت أكثر رجال الله تعالى في جبل لبنان وكانوا يوصونني إذا رجعت أبناء الدنيا فعظهم بأربع، قل لهم: مَن يكثر الأكل لا يجد لذة العبادة، ومن ينم كثيراً لا يجد بركة عمره، ومن لم يترك رضا الناس فلا ينتظر رضا الرب، ومن يكثر بفضول الكلام فلا يخرج من الدنيا على دين الإسلام.

وعن سهل: إن جميع الخير في هذه الأربعة حتى صارت البدلاء بها أبدالاً. وقال بعض: الجوع رأس مالنا. ومعناه أن ما يحصل لنا من فراغ وسلامة وعبادة وحلاوة وعلم إنما هو بسبب الجوع والصبر لكن المقصود ليس إفراط الجوع الذي يضعف البدن ويضر في العبادة إذ النفس مطية فالرفق بها لازم.

(و) قلة **(القول)** وقد سمعت بعض ضرر إكثار الكلام، روي عن المصنف. وعن ابن المبارك: احفظ لسانك إن اللسان سريع إلى المرء في قتله، وإن اللسان دليل الفؤاد يدل الرجال على عقله. وفي «المنهاج»: لسان المرء ليثه ولهذا قيل: لسانك أسدك إن أرسلته أكلك. وفي المثل: رب كلمة تقول لصاحبها دعني. وعن مالك بن دينار: إذا رأيت قساوة في قلبك ووهناً في بدنك وحرماناً في رزقك فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك. وقيل: أفضل الصدقة حفظ اللسان ومن كف لسانه ستر الله عورته، كلام ابن آدم بلاء إلا ذكر الله تعالى، البلاء موكل على القول إن الله لا يقبل عمل عبده حتى لا يرضى عن لسانه، سكون اللسان سلامة الإنسان، صلاح الإنسان في حفظ اللسان، بلاء الإنسان من اللسان، تلف الإنسان من طرف اللسان **(والنوم)** نقل عن الأربعين للمصنف: النوم مانع قوي عن العبادة ورأس مال السعادة العمر ثم النوم ينقصه إذ يمنع العبادة. وقيل: كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار. وفي «الروضة» من لزم

وكثرة الصلاة والصدقة والصوم.........................

الرقاد حرم المراد **(وكثرة الصلاة)** لأنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية والمالية والقلبية من طهارة وستر العورة والتوجه إلى الكعبة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الرحمٰن وقراءة القرآن والتكلم بالشهادتين والكف عن الأطيبين، ومشتملة على عبادة جميع أحوال الإنسان قياماً وقعوداً وانحناءً وسقوطاً على الأرض، ومشتملة أنواع الأذكار ثناء وتحميداً وتكبيراً وتسبيحاً وتهليلاً وتوحيداً وجامعة لأصناف العبادات فرضاً وواجباً وسنَّة ومستحباً وندباً، وأيضاً جامعة لفضائل الفعل كما ذكر. والترك إذ بترك محرماتها ومنهياتها ومكروهاتها سيما عند ما تشتهي النفس يحصل الآخرة، فالصلاة وسيلة قوية إلى أجل المآرب وأقصد المقاصد.

(والصدقة) أي كثرة الصدقة، الظاهر ما هو من النوافل أو أعم منها، ومن نحو الزكاة والأفضل في الصدقة أن يكون من أحب أمواله إذ الملك ما لصاحبه فقط وغير الصدقة ملك الغير. قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النّحل: الآية 96]، وقال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية 92]. وفي «الروضة» للزندوسي عن أنس رضي الله تعالى عنه: يؤتى برجل يوم القيامة من النار فيقال له: كيف وجدت مقيلك، فيقول: مقيلي أشد، فيقول الله تعالى: أتفتدي بملء الأرض ذهباً حتى أخرجك من النار، فيقول العبد: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كذبت عبدي فقد سألتك في دار الدنيا أهون من ذلك أمرتك بإشباع جائع فلم تفعل. وفيه أيضاً عن علي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن قراءة القرآن فقال: «عليك بالصدقة فإنها أمان من النار» قلت: والصلاة عليك، قال: «عليك بالصدقة فإنها في القلب»، قلت: والتسبيح، قال: «عليك بالصدقة فإنها مهور حور العين»، قلت: فقيام الليل، قال: «لا يقاس على قيام الليل ولكن الصدقة أفضل من قيام الليل بألف مرة»، فأما البخيل فحارس نعمته وخازن ورثته والبخل في الطعام من أخلاق الطغام.

(والصوم) قال في «الجامع الصغير»: قال عليه الصلاة والسلام: **«صمت**

وكان بمتابعة الشيخ البصير جاعلاً محاسن الأخلاق له سيرة كالصبر والشكر

الصائم تسبيح ونومه عبادة ودعاؤه مستجاب وعمله مضاعف». وفيه صيام المرء في سبيل الله تعالى يبعد من جهنم مسيرة سبعين عاماً ولهذا اختار بعض السادات الصوفية صوم الدهر وبعضهم صوم داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام يصوم يوماً ويفطر يوماً، وبعضهم كل اثنين وخميس من كل أسبوع، وبعضهم أيام البيض من كل شهر الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، وكل ذلك ورد في فضله وكثرة أجره وثوابه أثر لكن شرطوا في الصوم عدم ضعف البدن وإلا فيمنع، الصلاة أفضل من الصوم كما في وصايا لقمان لابنه.

(وكان) ذلك الشيخ **(بمتابعة الشيخ البصير جاعلاً محاسن الأخلاق له)** أي لنفسه **(سيرة)** أي ملكة راسخة وطبيعة لازمة، لقد صدق من قال:

يا من تقاعد عن مكارم خلقه　　ليس التفاخر بالعلوم الظاهرة
مَن لم يُهذب علمه أخلاقه　　لم ينتفع بعلومه في الآخرة

شعر:

حسن الخلق يلحق الأخسة مرتبة الأكابر
وسوء الخلق يلحق الأعزة إلى حالة الأصاغر

وروي عنه عليه الصلاة والسلام: «**الخلق السيّىء يفسد العمل كما يفسد الملح العسل**» **(كالصبر)** لا سيما في طريق الطاعة بل أفضل الصبر ذلك، والصبر عمل لا يوازنه عمل إذ ثواب سائر الأعمال مما يمكن حسابه وعده وأما ثواب الصبر فغير متناه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُمَر: الآية 10].

(والشكر) لا سيما على ما وفقه الله تعالى من الطاعة. قال المص: إن تسبيحة واحدة محتاجة إلى شكر، والشكر والتحميد من أفضل الطاعات بل حكمة مشروعية جميع الطاعات هو شكر المنعم ولهذا يقال: شكر المنعم على المنعم عليه واجب، ومن ثمة اختلف في أن التحميد أفضل أو التهليل وإن كان الأصح هو الثاني على ما في «شرح الحصن الحصين» لعلي القاري رحمه الباري.

والتوكل واليقين والسخاوة والقناعة وطمأنينة النفس.............

(والتوكل) في جميع الأمور، وقد عرفت تفصيله **(واليقين)** الظاهر أن المراد به معرفته تعالى بذاته وبصفاته تحقيقياً أي بإيمان تحقيقي لا استدلالياً كالحكماء والمتكلمين والصوفيين البطالين وذلك بالذوق والحال والوجدان وذلك إنما يحصل بالاتقاء والتورع وبدوام العبودية مراعياً للكتاب ومحافظاً للسنَّة متوقياً عن الشبهات والمكروهات تاركاً جميع ميولات النفس وهواها.

(والسخاوة) قال الجنيد رحمه الله تعالى: أربع توصل الرجل إلى مقام المقربين وإن قل علمه وعمله: الحلم والسخاوة وحسن الخلق والتواضع. وعن علي رضي الله تعالى عنه: كمال الرجل أربعة: السخاء عند القلة والتواضع عند الدولة والعفو عند القدرة والعطاء بغير المنة. وفي وصايا نجم الدين الكبرى: أوصيه بمواساة الفقراء وأن لا يمر عليه يوم إلا ويتصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة ممن يعلم أنه يصلي.

(والقناعة) عن الشافعي رحمه الله تعالى:

كن غني القلب واقنع بالقليل ... مت ولا تطلب معاشاً من لئيم
لا تكن للعيش مجروح الفؤاد ... إنما الرزق على اللّه الكريم

وقال بعضهم: ما سيقت أغصان ذل إلا على طمع بذر. وقيل: الطامع لا يشبع أبداً لأن حروف الطمع كلها مجوفة. وقال أبو بكر الوراق: لو سئل الطمع من أبوك قال: الشك في المقدور ولو قيل ما حرفتك لقال اكتساب الذل، ولو قيل ما غايتك، لقال الحرمان. وقيل: الطمع من أعظم آفات النفوس، وفي كلام بعضهم:

خذ القناعة من دنياك وارض بها ... واجعل نصيبك منها راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... ما راح منها بغير القطن والكفن

قال الشافعي رحمه الله تعالى: الحريص محروم والرزق مقسوم والبخيل مذموم والحسد مغموم. قال في «الوارف»: لا يكمل شغل العبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة.

(وطمأنينة النفس) الظاهر أن المراد به النفس المطمئنة وهي على ما ذكره

والعلم والحلم والتواضع والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأني

والعلم والحلم والتواضع والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأني وأمثالها، فهو إذاً نور من أنوار النبي ﷺ يصلح للاقتداء به لكن وجود مثله نادر أعز....................................

المص في بعض كتبه التي تنورت بنور القلب وتجملت بالأخلاق الحميدة وتوجهت إلى جهة القلب بالكلية متابعة له في الترقي إلى جانب عالم القدس متنزهة عن خبائث الرجس مواظبة على الطاعات مساكنة إلى رفيع الدرجات حتى خاطبها ربها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: الآيات 27- 30] للتجريد، ويمكن أن يراد باطمئنان النفس اطمئنانها بذكر الله تعالى على ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: الآية 28] **(والعلم والحلم والتواضع والصدق والحياء والوفاء والوقار والسكون والتأني وأمثالها)** كالنصيحة والشفقة والخدمة والإلفة والبشاشة والاحتمال والمداراة والإيثار والكرم والفتوة وبذل الجاه والمروءة والتودد والعفو والصفح والتلطف والبشر والطلاقة والثناء وحسن الظن وتصغير النفس وتوقير الإخوان وتبجيل المشايخ والترحم على الصغار والتوقير على الكبار وغيرها وتفاصيل الكل في «المطولات» و«الإحياء» و«المنهاج» و«الطريقة».

قال تاج الدين النقشبندي: ومن يريد أن يعرف الشيخ الكامل بالتحقيق يجلس على مقابلته فإن حصل له الجمعية وزال عنه التفرقة أو نقص فهو ولي وإن لم يحصل له التميز ففي وقت سكون الشيخ يجلس أيضاً مقابله متوجهاً إلى الباطن فإن نقص من الخواطر والوساوس فولي مرشداً وإلا فيتركه فالشيخ هو الذي بقوة تصرفه ترتفع الظلمات البشرية عن المريد وتثبت أنوار الجمال الإلهي فبسببه يحصل طلب الذات الأحدية فتحويل القلب عن الأدنى إلى الأعلى وانصراف الرغبة عن الأدنى على يد الشيخ وترك الدنيا على يد المريد. وقيل: الشيخ يحيي ويميت.

(فهو إذاً نور من أنوار النبي ﷺ) ومعجزة من معجزاته **(يصلح للاقتداء به)** فيه إشارة إلى أن ما ذكر أدنى ما يقتدى به إذ الأعلى مما يجب الاقتداء به **(لكن وجود مثله نادر)** أي عزيز وقليل **(أعز)** أي أشرف قدراً وأعظم قيمة أو أقل وجوداً

من الكبريت الأحمر ومن ساعدته السعادة فوجد شيخاً كما ذكرنا وقبله الشيخ فينبغي أن يحترمه ظاهراً وباطناً أما احترام الظاهر فهو أن لا يجادله

(**من الكبريت الأحمر**) في بعض اللغات إذا تعذر وجود شيء ولم يكن له وجود يقال هو معدوم كالكبريت الأحمر فهو يكون كناية عن كمال الندرة والقلة. وقيل: حجر يضيء في الليل. حكي أن سليمان عليه الصلاة والسلام وضع في قبة بيت المقدس فيستضاء مقدار ميل في الليل إلى أن تغزل النسوان بضيائه على ما نقل في بعض المواضع عن شرح هذه الرسالة أو غبار كمياء لو وضع مقدار إذن خلال في مرجل مملوء انقلب المرجل مع ما فيه ذهباً أو فضة على ما قرر الشيخ الوالد نور الله مرقده وجعل الجنة مثواه عند تدريس هذا المحل.

(**ومن ساعدته**) من المساعدة (**السعادة**) أي الشرف فاعل ساعدت يعني من وفقه الله تعالى بالسعادة وقد يفسر بالبخت (**فوجد شيخاً كما ذكرنا**) إذ لغاية ندرته ونهاية عزته لا يصادف مثله إلا بتوفيق الله أو بمساعدة البخت كان مصادفة مثله مما لا يكون حصوله مقدوراً (**وقبله الشيخ**) فيه إشارة إلى أن الشيخ على تقدير وجوده لا يقبل كل أحد بل إنما يقبل من علم فيه استعداداً وقابلية إذ شرط في فيض العلة الفاعلية استعداد العلة القابلية وأيضاً إنهم لا يكتمون ولا يبخلون ممن فهموا منه القابلية والاستعداد ويظنون منه السعي والمجاهدة إذ سرهم وديعة عظيمة يحرم إعطاؤها لغير أهلها كما يحرم المنع عن أهلها ولذا قالوا: لا تنطقوا الحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم.

ويروى: لا تكشفوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها ولا تكتموها عن أهلها فتظلموهم. وفي «شمس المعارف»:

ومن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وأيضاً قيل: صن القال عمن لم يكن أهلاً للقال. قال عليه الصلاة والسلام: «**نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نتكلم على الناس على قدر عقولهم**» كما سيأتي من المص (**فينبغي أن يحترمه**) أي يعظمه ويوقره (**ظاهراً وباطناً أما احترام الظاهر فهو أن لا يجادله**) الظاهر أنه عام للمناظرة إذ المناظرة بين المتساويين وعند خفاء

ولا يشتغل بالاحتجاج معه في كل مسألة وإن علم أخطاءه ولا يلقي بين يديه سجادته إلا وقت أداء الصلاة. . . . .

الأمر وكلام الشيخ عند طالبه يلزم أن يكون حقاً في اعتقاده. فإن قيل: عند كون خلاف الشيخ ظاهراً بيناً ما يفعل الطالب. قلت: إن هذا قريب أن يكون من قبيل تعليق المحال إذ الموصوف بالصفات السابقة لا يذهب ولا يقول ما يكون فساده ظاهراً ولو حدث على مقتضى البشرية لا يصر عليه بل يتذكر في أول التنبيه.

(ولا يشتغل بالاحتجاج معه) أي على خلافه يعني لا يشتغل على إتيان الحجة على خلاف الشيخ، وفي لفظ الاشتغال إشارة إلى الرخصة بنحو مرة واحدة إذ لا يعد ذلك مجادلة **(في كل مسألة)** هذا وإن كان ظاهراً في رفع الإيجاب الكلي لكن المناسب حمله على السلب الكلي لا السلب الجزئي **(وإن علم أخطاءه)** إذا لم يرجع بما هو بمرة واحدة لا يلزم على تلميذه إلزامه لعل الشيخ يتذكر بعد التأمل ويرجع عن إنكاره بعدما وصل إدراكه بعد هذا الزمان بالتفكر، وقد قال تاج الدين في رسالته: لا ينبغي للمريد أن يقتدي بجميع أفعال الشيخ بلا أمره إذ يجوز أن يكون عمل الشيخ بحسب مقامه وحاله وذلك للمريد سم فمحرم.

وفيها أيضاً: ينبغي أن يعتقد المريد أن خطأ الشيخ أقوى من صوابه ولا ينصح للشيخ إن لم يسأله كما أن الشيخ نظام الدين يقرأ «المشارق» على شيخه لكن لغاية سقامة نسخته يتكلف الشيخ ويتعب على نفسه فقال نظام الدين يوماً لشيخه: نسختك غلط جداً إن تأمرني أطلب عن فلان ونسخته صحيحة فكان ذلك صعباً على الشيخ فغضب عليه قال نظام الدين: زال بهذا حالي وسقطت عن مقامي حتى خفت من الإيمان الشرعي فاستشفعت من زوجته فرجعت إلى حالي ومقامي بعده. وعن بعض العارفين أنه قال أول من رآني صار صديقاً وآخر من رآني صار زنديقاً.

(ولا يلقي) أي لا يضع **(بين يديه سجادته)** لاستلزامه لتعريض الأمر بالصلاة **(إلا وقت أداء الصلاة)** فإنه حينئذ من كمال التأدب وزيادة التكريم أما إذا علم من الشيخ صلاته البتة إما بالقرائن أو لكون بعض الصلاة كالضحى موظفاً عند الشيخ

فإذا فرغ يرفعها ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه.

وأما احترام الباطن فهو أن كل ما يسمع ويقبل منه في الظاهر لا ينكره في الباطن لا فعلاً ولا قولاً لئلا يتسم بالنفاق وإن لم يستطع يترك صحبته إلى أن يوافق ظاهره باطنه..........................

فهي كالوقتية (**فإذا فرغ يرفعها**) لإظهار مسارعة الخدمة (**ولا يكثر نوافل الصلاة بحضرته**) لإيهام سوء أدب وهو ملتزم بكمال حسن الأدب (**ويعمل ما يأمره الشيخ من العمل بقدر وسعه**) قال في الرسالة «التاجية» وإن كان ما أمره خلاف شرع في اعتقاده لأن الشيخ لا يأمره إلا بأمره تعالى فيحسن عقيدته في حق الشيخ ولا يتوقف في العمل بإشاراته. كما حكي أن بعض تلامذة الشيخ النصر استأذنه منه ليتزوج فأصر زيادة فمنع الشيخ ثم تزوج بلا إذن فحصل أربع بنات جلسن كلهن في الدكان للعمل السوء فحمل ذلك على فراسة الشيخ وكرامته.

(**وأما احترام الباطن فهو أن كل ما يسمع ويقبل منه في الظاهر لا ينكره**) ولا يرده (**في الباطن**) أي في قلبه (**لا فعلاً ولا قولاً**) الظاهر قيد للإنكار والرد (**لئلا يتسم**) من السمة بمعنى العلامة يعني أن عدم موافقة الظاهر بالباطن سمة (**بالنفاق**) وعلامة له فلو فعل ذلك للزم ذلك (**وإن لم يستطع**) أي إن لم يكن ذلك مقدوراً له (**يترك صحبته إلى أن يوافق ظاهره باطنه**) لأن الإنكار يسد باب الفيض فلو تكلف مع الإنكار لا يستضيء من أنوار الشيخ. قال في «العوارف» ومن قال للأستاذ لا لا يفلح أبداً وأن الأدب مع السادات يبلغ صاحبه إلى الدرجات والكمالات ومن لم يعظم حرمة من تأدب حرم بركة وفيضاً منه.

وقال بعضهم: ما وصل من وصل إلا بالأدب وما سقط من سقط إلا بترك الأدب. وقال الجنيد حين رد بعض أصحابه إن لم تؤمنوا بي فاعتزلوا عني. والحاصل أنه ينبغي له أن يكون منقاداً ومستسلماً لأمره بل لمن يقدمه الشيخ أيضاً من المريدين وإن كان علمه الظاهري أقل من علم المريد ويخدمه بالنفس والمال والبدن ويحبه على جميع الخلائق بل نفسه بموجب «**لا يكمل إيمان أحد حتى أكون**

ويحترز عن مجالسة الصاحب السوء ليقصر ولاية شياطين الجن والإنس من صحن قلبه. . . . .

أحب إليه من نفسه وماله وولده» إذ الشيخ خليفة الرسول ﷺ كما حكي أن خواجة أحرار قدس سره قال: سمعت من أمير قاسم قال: ذهبت لزيارة مولانا زين الدين وعنده رجل صوفي أجنبي فمولانا قال للصوفي: أتحب شيخك أو الإمام الأعظم أبا حنيفة رحمه الله تعالى، قال: أحب شيخي. فغضب عليه مولانا إلى أن شتم بنحو يا كلب ويا حمار، فقام الشيخ من غضبه وراح الرجل وأنا متحير فخرج مولانا من بيته بعد زمان وجاء الرجل واعتذر فقال: عملت خمسين سنة بتفاصيل فقه الحنفي ولم أحصل التبري عن رغبة المكاره ومشتهيات النفس والهوى فبخدمة زمان قليل للشيخ زال مني مثل تلك الرغبات والميولات، فسلم الشيخ اعتذاره وأكرمه وحسنه كما في «الرسالة التاجية».

(ويحترز عن مجالسة الصاحب) أي المصاحب **(السوء)** فضلاً أن يتخذه خليلاً لأن الصحبة سارية والطبيعة سارقة والرجل على دين خليله. قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى في وصاياه لتلميذه يوسف السمتي: وإياك والانبساط إلى السفهاء ولا تجيبن دعوته ولا تقبلن أمانته وهديته وليكن بطانة لك يعرفك خيار الناس، فمتى عرفت بفساد فازدد في الصلاح. وفي نصائح بعض المشايخ: إياك ومخالطة الناس المحبين للدنيا المقبلين عليها فإنه يميت القلب. وقيل: صحبة المخالف سم مجرب قاتل وإنما يحترز عن ذلك **(ليقصر)** أي يزول وينعدم حكم **(ولاية)** يعني تصرف **(شياطين الجن)** من الوساوس وقوة الإغواء **(و)** شياطين **(الإنس)** وهم الفساق والأشقياء بل مطلق أبناء الدنيا بل أحكام شيطانية الإنس أقوى من أحكام شيطانية الجن لكون أشخاصهم مرئياً وحيلهم ومكرهم خارجياً **(من صحن قلبه)** أي وسطه الجار متعلق بقوله ليقصر.

فإن قيل: صحبة السوء بالأشخاص الردية كيف يكون باعثاً لتصرف شيطان الجن وكيف يكون في القلب، قلت: إذا وقع الصحبة مع موافق الشياطين ومصاحبهم كانت كنفس الشيطان إذ الأشخاص الردية آلة الشياطين في تأثير أعمالهم

فيصفي عن لوث الشيطانية وعلى كل حال يختار الفقر.

في غيرهم وإن في الأفعال الخارجية الجوارحية تأثيراً قوياً في الملكات القلبية. قال بعض المشايخ: لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله تعالى مقاله. قال القشيري: باعد عن أهل الدنيا فإن صحبتهم سم مجرب لأنهم ينتفعون بك وأنت تنقص بهم فإذاً قصر ولايتهم وبطل تصرفاتهم بالاحتراز عن صحبتهم.

(فيصفي) الطالب **(عن لوث الشيطانية)** أي لوث وخباثة يحصل من طرف الشيطان أو اللائق بالشيطان فيبعد بسببه عن فيض الشيخ ورضائه **(وعلى كل حال يختار الفقر)** مع الصبر عليه قال في بعض وصاياه: اختر الفقر على الغنى فإن فيه الخفة والصفاء وارضَ باليسير من الدنيا والقناعة كنز لا يفنى وليكن عيشك من كسب اليد ولا تدخر لأجل الغد فإن الغد يجيء برزقه والله كان في كفالته واقصد إلى رتبة المساكين وهي مقصد سيد المرسلين. شعر:

واستغن ما أغناك ربك بالغنى   وإذا تصبك خصاصة فتجمل

أي إن تصبك فقر ومسكنة فاصبر ولا تضجر بل أظهر الغنى. قال بعضهم: من استغنى بالله عن الناس أمن من عوارض الناس ومن أظهر الفقر إلى الناس لا ينفك عن الرذالة ومن أظهر الغنى عن الناس واقتصر الافتقار إلى رب الناس يفتقر إليه كل شيء حتى ملوك الناس.

خصال التصوف

أيها الولد: ثم اعلم إن التصوف له خصلتان الاستقامة والسكون من الخلق فمن استقام وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم فهو صوفي.

خصال التصوف

أيها الولد: (**ثم اعلم**) يريد أن يذكر بعض ما يكون كالعمدة من شرائط الصوفية، ونبه على زيادة كونه مهماً عندهم بقوله: اعلم فقال: (**إن التصوف**) أي التخلق بالأخلاق الإلٰهية على ما فسر به المص في بعض مصنفاته، قال السيوطي في شعلة النار التصوف علم الحال لا علم المقال، وهو أن يتخلق بمحاسن الأخلاق التي وردت السنة النبوية بها ولهذا قالوا: التصوف ارتكاب كل خلق سني وترك كل خلق دنيء. وقيل: التصوف أربعة أحرف: التاء توبة عن المعاصي، والصاد صبر على البلاء، والواو وفاء للعهد، والفاء فراغ عن جميع الخلق. وقال الجنيد: التصوف حفظ الأوقات وعدم مطالعة العبد غير حاله ولا يوافق غير ربه ولا يقارن غير وقته. وعن سهل بن عبد الله الصوفي: من صفا من الكدر وامتلأ في الفكر وانقطع إلى الله تعالى من البشر واستوى عنده الذهب والمدر (**له**) أي للتصوف (**خصلتان**) كالركن له (**الاستقامة والسكون من الخلق**) لعل المراد عدم الاضطراب منهم بعفو فرطاتهم وتجاوز قصورهم ولا يشتغل بقيد انتقامهم بل يجتهد على إحسانهم مسيئهم ومحسنهم على حذاء ما فهم من تقريره الآتي هنا (**فمن استقام**) مع الله تعالى (**وأحسن خلقه بالناس وعاملهم بالحلم**) عن الجنيد رحمه الله تعالى: أربع ترفع الرجل إلى أعلى الدرجات وإن قل عمله وعلمه: الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الإيمان (**فهو صوفي**).

والاستقامة أن يفدي حظ نفسه لنفسه وحسن الخلق بالناس أن لا تحمل الناس على مراد نفسك بل تحمل نفسك على مرادهم ما لم يخالفوا الشرع.

(والاستقامة) التي أمر بها الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هُود: الآية 112] في سورة هود، وعليه حمل قوله عليه الصلاة والسلام: «**شيبتني سورة هود**». وقيل: إن جميع مقاصد القرآن راجعة إلى الاستقامة ولهذا قيل إن الفاتحة مشتملة على مقاصد القرآن والمقصود من الفاتحة هو الاستقامة المفادة من قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: الآية 6] **(أن يفدي)** من الفداء **(حظ نفسه)** أي ميولها وشهواتها **(لنفسه)** أي لخالص نفسه أو لحفظ نفسه أو لإكمال نفسه أو لنجاتها ولا يخفى أن ذلك إنما يتحصل بتحمل الأفعال الشاقة من الأحكام الإلٰهية والسنن النبوية والسيرة الأحمدية. **(و)** معنى **(حسن الخلق بالناس أن لا تحمل الناس على مراد نفسك)** يعني كل شيء تريد نفسك وتميل وتشتهي في معاملة الخلق لا ترسل نفسك عليه بل تمنعها منه **(بل تحمل نفسك على مرادهم)** يعني توافقهم وتعطي آمالهم في كل شيء يرجون ويترقبون منك **(ما لم يخالفوا الشرع)** قيل سئل ﷺ عن معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» قال: «**صل من قطعك واعف عمن ظلمك وأحسن إلى من أساء إليك**».

قيل إن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عِمرَان: الآية 159] مجمع مكارم أخلاق حسان. قال القاضي عياض في شفائه: روي أنه ﷺ لما نزلت عليه قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعرَاف: الآية 199] الآية سأل جبرائيل عن تأويلها فقال جبرائيل: حتى أسأل العالم. ثم ذهب ثم أتاه فقال: يا محمد إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك. وقال له: اصبر على ما أصابك. وقيل: إن مكارم الأخلاق مع كثرتها منحصرة في شيئين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله. وفي «جامع الصغير» أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتصفح عمن ظلمك. وفي وصايا أبي حنيفة رحمه الله تعالى ليوسف السمتي: خذ العفو واترك كل من

ثم إنك سألتني عن العبودية وهي ثلاثة أشياء أحدها: محافظة أمر الشرع وثانيها: الرضا بالقضاء والقدر وقسمة الله وثالثها: ترك رضا نفسك في طلب رضا الله تعالى.

وسألتني عن التوكل وهو أن يستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعد يعني أن تعتقد أن ما قدر لك سيصل إليك لا محالة وإن اجتهد من في العالم على صرفه عنك. . . . .

يؤذيك وبادر في إقامة الحدود وعد مرضاهم ومن قعد منهم عنك فلا تقعد أنت عنه وصل من جفاك وأكرم من أتاك وكلّم بالجميل الحسن لمن يكلمك بالقبيح السوء، ومن مات فشيعه، ومن له فرح فهنئه ومن له مصيبة فعزه عنها ومن أصابه هم توجع له به انتهى.

(**ثم إنك سألتني عن العبودية وهي ثلاثة أشياء أحدها: محافظة أمر الشرع**) والمداومة عليه بلا ترك ولا هوان (**وثانيها: الرضا بالقضاء**) أي الحكم الإلهي (**والقدر**) أي التقدير الإلهي وللقوم وجوه بالفرق بينهما لكن المناسب هنا اتحادهما (**وقسمة الله**) خصوصاً في أمر الرزق (**وثالثها: ترك رضا نفسك في طلب رضا الله تعالى**) لأن مخالفة النفس أساس الأمر بين العبد وبين الله تعالى فلا تغفل عن الله تعالى بالاشتغال على حظ النفس والاتباع على هواها. وقيل: من رخص النفوس غاب عن الملك القدوس. قال القشيري: أصل المجاهدة فطم النفس عن المألوفات وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات.

(**وسألتني عن التوكل وهو أن يستحكم**) من الاستحكام (**اعتقادك بالله تعالى فيما وعد**) بنحو قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: الآية 6] كما يدل عليه قوله (**يعني أن تعتقد أن ما قدر**) أي ما قدر الله (**لك سيصل**) ويمكن أن يكون لفظ السين للتأكيد بنحو قوله عليه الصلاة والسلام: «**سترون ربكم**» (**إليك لا محالة**) أي البتة (**وإن اجتهد**) جميع (**من في العالم على صرفه عنك**) أي على منع ذلك فإن المقدر كائن لا يزال ويمتنع تخلف مراد الله عن إرادته. فإن قيل: كثيراً ما نرى أشخاصاً كثيرين يضطرون في أمر الرزق لعدم

وما لم يكتب لك لن يصل إليك في جميع أوقاتك المستقبلة وإن ساعدك جميع العالم.

وسألتني عن الإخلاص وهو أن يكون أعمالك لله تعالى لا يرتاح قلبك بمحامد الناس ولا يتأسى بمذمّتهم.

الاكتساب بل يموتون جياعاً، قلت: لعل ذلك من عدم توكله أو قلته وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلَاق: الآية 3] إذ فهم منه شرطية التوكل وقد أخذ في التوكل تفويض أمره إليه تعالى طالباً عرفانه وقربه ورضاءه منقاداً لحكمه من النفع والضرر والمحنة والضر راضياً بقضائه وشاكراً لنعمائه وصابراً لبلائه **(وما لم يكتب لك)** أي الشيء الذي لم يقدر لك الله تعالى **(لن يصل إليك في جميع أوقاتك المستقبلة وإن ساعدك)** أي أعانك ونصرك **(جميع العالم)** لأن إرادة الله تعالى غالب على إرادتهم فلا فائدة في إضاعة العمر لتحصيله غير استصعاب النفس والمشقة.

فإن قيل: فهذا يقتضي حرمة الكسب وهذا عين مذهب نحو الكرامية يحرمونه لاستلزامه رفض التوكل الواجب ومخالف لمذهب أهل السنة من فرضية الكسب للمضطر لنفسه أو عياله ورخصته لغيره.

قلنا: لعل المراد المنع عن إفراط الكسب كما يرى من بعض أبناء الدنيا يعطلون أنفسهم بصرف أوقاتهم إلى اكتساب متاع الدنيا وهذا القدر لا ينافي وجوب التوكل لأن التوكل صفة القلب وهو الثقة بالله والاعتماد عليه بأنه يرزقه ولو بسبب نحو الكسب بلا ثقة على الكسب فإنه ضلال، وإن الأنبياء كلهم يتوكلون مع أنهم مكتسبون كآدم فإنه زراع وإدريس خياط ونوح بحار وإبراهيم بزاز ومحمد صلى الله تعالى عليهم أجمعين غاز كما في الخبر. وفي «جامع الصغير»: «**بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبدوا الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي**» الحديث.

(وسألتني عن الإخلاص وهو أن يكون أعمالك لله تعالى لا يرتاح) أي لا

يفرح (**قلبك بمحامد الناس**) أي مدائحهم (**ولا يتأسى بمذمّتهم**) أي لا يحزن يعني

واعلم أن الرياء يتولد من تعظيم الخلق، وعلاج إخراجه أن تراهم مسخري القدرة وتحسبهم كالجمادات في عدم قدرة إيصال الراحة والمشقة لتخلص من مراياتهم ومتى تحسبهم ذوي قدرة وإرادة لن يبعد عنك الرياء.

لا يغتر بمن يمدح ولا يمل بقول من يذم قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: الآية 23] فالمدح والذم عنده سيان.

(**واعلم أن الرياء يتولد من تعظيم الخلق**) أفرد الرياء بالذكر من بين سائر الأمور الذميمة لمناسبة الإخلاص الذي سئل عنه لأنه مقابله وكمال توضيحه يتوقف عليه أو حصول الإخلاص إنما يكون بترك الرياء أو لمناسبة قوله: لا يرتاح إلى آخره، إذ الارتياح المذكور هو الرياء أو لأن ضرره عظيم ووقوعه كثير وخلاصه عسير (**وعلاج إخراجه أن تراهم**) أي تعتقدهم (**مسخري القدرة**) أي الخلق الذين يقصد منهم تعظيمه مسخرين لقدرة الله تعالى يعني ليس لهم قدرة على شيء في جنب قدرة الله تعالى لأن النافع والضار هو الله تعالى (**وتحسبهم كالجمادات**) التي لا حركة لها اختيارية بل اضطرارية إذ ليس للعبد قدرة مؤثرة وإن كان له قدرة. اعلم أن هذا مبني على أصل الأشعري وإلا فالماتريدية لا يرضون على ذلك لاستلزامه الجبر المحض ويقولون: إن المؤثر في فعل العبد مجموع قدرة الله تعالى وقدرة العبد، نعم التشبيه بالجمادات لا يقتضي اتحاد عين حكم الجماد إذ المشبه مغاير للمشبه به والأصل كون الوجه أقوى في المشبه به لكن لا يتحمل على ذلك مذهبهم فافهم.

(**في عدم قدرة**) على (**إيصال الراحة والمشقة**) لعل طلب التعظيم إما للوصول إلى الراحة أو للخلاص من المشقة وإلا فلا يناسب قوله من تعظيم الخلق (**لتخلص**) متعلق بقوله وتحسبهم (**من مراياتهم**) أي من الرياء إليهم (**ومتى تحسبهم ذوي قدرة وإرادة**) عن شيء سيما النفع والضر (**لن يبعد عنك الرياء**) ومن علاجه ملاحظة الضرر المترتب عليه واستلزامه قلب الموضوع إذ العمل

الموضوع لعبادة الرب يكون مستعملاً للناس ويلزمه استحقاق عبادة الرب وهو عالم ما في ضميره.

أيها الولد: الباقي من مسائلك بعضها مسطور في مصنفاتي فاطلبه ثمة، وبعضها من السؤالات التي كتابتها وتكلمها حرام اعمل أنت بما تعلم لينكشف لك ما لم تعلم.

أيها الولد: (الباقي من مسائلك) يعني إلى الآن خرج الجواب عن جميع ما سألت إلا أمرين فأحدهما قوله (**بعضها مسطور**) أي مكتوب (**في**) أكثر (**مصنفاتي**) أو جميع مصنفاتي من التصوف فإن كنت حريصاً له (**فاطلبه ثمة**) كالإحياء والمنهاج وبداية الهداية لعل ذلك البعض إنما يكون معلوماً فيما بينهما وكتابة بعضها حرام.

وثانيها قوله: (**وبعضها من السؤالات التي كتابتها**) لعدم إحاطة العبارة أو لامتناع التعبير (**وتكلمها حرام**) لعدم الإمكان كما عرفت أنه من الوجدانيات لا يمكن الفهم بلا ذوق أو لأنه سر لا يجوز إفشاؤه لغير أهله والأهلية إنما تحدث بعد الوصول إلى ذلك المقام وبعد الوصول لا يبقى حاجة إلى الكتاب والكلام، فهذا كالمستدرك بما سبق لعل وجه التكرار لزيادة التقرير والاهتمام إلى مباشرة أسبابه ومواظبة لوازمه كما يشير إليه قوله: (**اعمل أنت بما تعلم**) من العلوم الشرعية الإلٰهية والأحكام السنية النبوية بشرائط جانبي ملكات الأخلاق ورعاية قيود علم الزهد (**لينكشف لك**) أي لأجل أن ينكشف أو إلى أن ينكشف لك (**ما لم تعلم**) ما أشكل عليك معرفته، يعني إن أردت معرفة هذا النوع من مسألتك فاجتهد العمل فيظهر لك ذلك، فهذا معنى ما روي عنه ﷺ: «**من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم**».

بالصبر تنكشف الحقائق

أيها الولد: بعد اليوم لا تسألني إلا بلسان الجنان قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: الآية 5]، **واقبل نصيحة الخضر** ﴿فَلَا تَسْئَلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: الآية 70] **ولا تستعجل حتى تبلغ أوانه...**

بالصبر تنكشف الحقائق

أيها الولد: (**بعد اليوم**) الظاهر أي بعد اليوم الذي قلت لك وبعضها كتابتها وتكلمها حرام (**لا تسألني**) يعني لا تلح في السؤال ما أشكل عليك إلحاحاً (**إلا بلسان الجنان**) أي بلسان الحال لعل ذلك بقرينة فكأنه لما منع سؤال هذا الجنس أعاد سؤاله بل أقدم عليه على ما قيل الإنسان حريص على ما منع منه فأعاد المنع بحجته على ما يشير إليه بقوله اقتباساً: (﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: الآية 5]) يعني الخير ليس في السؤال بل الخير في الصبر إلى أن يظهر المقصود نفسه.

ثم أيد ذلك بقصة خضر عليه السلام فقال: (**واقبل نصيحة الخضر**) إلى موسى عليهما السلام وهو قوله: (﴿فَلَا تَسْئَلْنِى﴾ [الكهف: الآية 70]) الأظهر والأوفق أن يذكر قبيله ويقال فإن اتبعتني فلا تسألني (﴿عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: الآية 70]) يعني إن أردت متابعتي لا تسألني فيما نبهت لك إلى أن أذكره لك إذ رب أمر تسيء فهمه في البداية لكنه في النهاية جيد حسن. فلو أجيب إلى

جنس مثل هذا السؤال يرى كريهاً ومنكراً ولو صبر وأخر إلى أن تظهر حقيقة ذلك الأمر لظهر حسنه، فالاستعجال في الجواب ليس فيه مصلحة بل كراهة وباعث إلى سوء اعتقاد (**ولا تستعجل**) في خروج الجواب (**حتى تبلغ أوانه**)

وينكشف لك وأرأيت ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: الآية 37] **فلا تسألني قبل الوقت وتيقن أنك لا تصل إلى ذلك الوقت إلا بالسير** ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ [الرُّوم: الآية 9].

أي أوان المسؤول عنه (**وينكشف لك**) يعني إن لم تستعجل إلى ظهور زمانه ينكشف لك مسألتك وإن استعجلت يصعب ذلك بل يكون باعثاً إلى حرمانك كما قال الفقهاء: من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

وقيل أيضاً: الاستعجال شؤم والمستعجل محروم، والاستقصاء شؤم والمستقصي محروم (**وأرأيت**) كأنه توبيخ إذ مثله إنما يستعمل فيما يكون الأمر بيناً والحكم ظاهراً قوله تعالى: (﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: الآية 37]) أول الآية ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: الآية 37]. قال البيضاوي: كأنه منه خلق لفرط استعجاله وقلة ثباته كقولك: خلق زيد من الكرم جعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع، لعل المقصود هنا أن الرؤية محققة فلا فائدة في الاستعجال قبل وقته والأمور مرهونة بأوقاتها لكن الإنسان لكونه مخلوقاً من العجلة من عادته أن يستعجل قبل وقته.

(**فلا تسألني قبل الوقت**) فانتظر إلى وقته والوقت مشروط بالسير والسلوك كما يشير إليه (**وتيقن**) أي اعلم علماً يقينياً (**أنك لا تصل إلى ذلك الوقت**) أي الوقت الذي ينكشف لك مطلوبك (**إلا بالسير**) والسلوك في طريقه وذلك السير إنما يحصل بما يشير إليه آنفاً من قوله: اعمل أنت بما تعلم إلى آخره.

حاصله السير عن العلائق النفسانية والعوائق الجسمانية والمرور عن حجب المواد الهيولانية التي ينتكس النفس بالاشتغال بها والتلذذ بمراداتها في مهاوي

عالم الرجس والزور إلى أن يصل إلى أعياد وصال عالم القدس والنور التي هي ظهور الوقت المسؤول ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ [الرُّوم: الآية 9] لعل المعنى المراد هنا أيضاً أن رؤية المطلوب منوطة بالسير إذ الواصل إلى ذلك المطلوب فيما قبل إنما وصل به والله أعلم.

أيها الولد: بالله إن تسر تر العجائب في كل منزل ابذل روحك فإن رأس هذا الأمر بذل الروح، كما قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى لأحد من بعض تلامذته: إن قدرت على بذل الروح فتعال وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية.

أيها الولد: كأن المخاطب لم ينزجر بما ذكر بل ظن من أحواله أمارة الإنكار فأعاد هذا الحكم بالتأكيد القسمي فقال: (**بالله إن تسر**) سيراً صادقاً (**تر العجائب**) والغرائب التي لا تحيطها العبارات ولا يقررها الكلمات ولا يخطره الخواطر في الدهور والأوقات حال كون تلك العجائب (**في كل منزل**) من منازل السير فيه إشارة إلى كثرة السير حيث اشتمل منازل كثيرة، لعل المراد من كل منزلة طبقة ومرتبة من مراتب النفس.

ثم أراد أن يبين السير وطريقه فقال: (**ابذل**) من البذل بمعنى الصرف (**روحك**) الذي شأنه الاستغراق في مطالعة الله تعالى وجلاله وجماله من كدورة وساوس النفس (**فإن رأس هذا الأمر**) أي السير أي رأس مال هذا الذي سئل عنه وأريد الوصول إليه (**بذل الروح**) فهذا الأمر إنما يمكن حصوله ببذل الروح لعل المراد من هذا السير الخفي المكتوم هو ما قالوا من نحو المكاشفات والتجليات والوصول الذي يتعذر معرفة ماهيات كل منها بغير شيء من الذوق كما أشار إليه المصنف مرأراً (**كما قال ذو النون المصري رحمه الله تعالى لأحد من بعض تلامذته: إن قدرت على بذل الروح فتعال**) يعني تصلح لخدمتي وأبقيك في خدمتي (**وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية**) يعني الفائدة إنما تترتب على بذل الروح لا على ترهاتهم.

ماذا تدع وماذا تفعل

أيها الولد: إني أنصحك بثمانية أشياء اقبلها مني لئلا يكون عملك خصماً عليك يوم القيامة تعمل منها أربعة وتدع منها أربعة.

أما اللواتي تدع.........................

ماذا تدع وماذا تفعل؟

أيها الولد: كأنه أتم ما هو النصب مما سئل إلى هنا فما ذكر فيما بعد كالخاتمة والتذنيب لما ذكر قبل (**إني أنصحك بثمانية أشياء اقبلها مني لئلا يكون عملك خصماً عليك يوم القيامة**) فإذا لم تعمل بها يكون عملك خصماً لك لعدم جريك على مقتضى العلم. لا يخفى أن هذا يقتضي أن تكون تلك الثمانية كلها مختصة بالعالم وأنت ستعلم أن بعضاً منها عام للعالم وغيره إلا أن يقال الكلام على التغليب أو فهم ذلك إنما هي بطريق مفهوم المخالف ومن شرطه أن لا يكون إخراج الكلام لوقعة وحادثة، وهنا لما كان المخاطب عالماً عبر به أو لغير ذلك. ثم المراد من خصومة العلم إما كونه معاقباً لعدم جريه على مقتضى عمله وعدمه وضعه العلم فيما وضع له فكأن العلم كان خصماً له لكونه معاقباً لأجله، وإما أن العلم يكون خصمه حقيقة فيدعي عند الله تعالى بأنه ضيعني ولم يؤد حقي فإنه تعالى قادر على ذلك لكن ذلك موقوف على السمع إذ مثله إنما

يدرك بالرواية لا بالدراية وكونه مسموعاً في بعض الأعمال كالصلاة فعلى تقدير ثبوته وكونه على حقيقته لا يكون مقيساً عليه إذ من شرط القياس أن لا يكون ثبوت الأصل المقيس عليه خارجاً عن سنن القياس (**تعمل منها أربعة**) يعني أربعة منها تعمل وكذا قوله: (**وتدع منها أربعة**).

(**أما اللواتي**) جمع التي (**تدع**) التقديم للاهتمام إذ التخلية مقدمة على

أحدها: أن لا تناظر أحداً في مسألة ما استطعت لأن فيها آفة كثيرة وإثمها من نفعها كبير إذ هي منبع كل خلق ذميم كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها.

نعم لو وقع مسألة بينك وبين شخص واحد وقوم كثير وكان إرادتك فيها

التحلية وفي الثواب أكثر وفي العمل والإتيان أشد وأصعب، وفي الحديث: ترك ذرة من محارم الله تعالى خير من عبادة الثقلين. وفي رواية من منهيات الله تعالى، وفي حديث آخر: «ترك الدنيا أمر من الصبر وأشد من حطم السيوف».

(**أحدها: أن لا تناظر**) من المناظرة بمعنى المجادلة إذ أصل المناظرة وإن كان بحثاً موضوعاً لإظهار الصواب وكان واجباً في بعض المحال فضلاً عن الجواز كما يشير إليه لكن عند تطرق الآفة يخرج عن الصلاحية إذ ثبوت الأشياء إنما هو عند سلامة الأسباب وانقطاع الموانع (**أحداً في مسألة**) أي مسألة من العلوم الدينية الأصلية والفرعية أو غيرهما إذ النكرة في سياق النفي عامة.

وقوله: (**ما استطعت**) لعلة تأكيد للنفي للمبالغة فيه أو إشارة إلى جوازها عند الضرورة كالتعين عند ظهور ملحد قاصد بالدين فإنها عند ذلك فرض وإن لم يمكن دفع الآفة لأن الضرر القليل يرتكب لدفع الضرر الكثير (**لأن فيها**) أي في المناظرة (**آفة كثيرة وإثمها من نفعها كبير**) ولا يرتكب الضرر الكثير للنفع الجزئي (**إذ هي**) أي المناظرة (**منبع كل خلق ذميم**) أي محل يظهر فيه ذلك وكل للتكثير وإلا فظاهر أنه على الحقيقة لا يكون للكل منبعاً (**كالرياء**) بالنسبة إلى من غلب من المناظرين (**والحسد**) من جانب من كان مغلوباً (**والكبر**) من

الغالب (**والحقد**) من المغلوب (**والعداوة**) الظاهر من المغلوب أيضاً (**والمباهاة**) أي التفاخر من الغالب.

وقوله: (**وغيرها**) بعد الكاف في قوله كالرياء تأكيد أو للإشارة إلى زيادة الكثرة في البقية.

(**نعم لو وقع مسألة بينك وبين شخص واحد وقوم كثير**) فيه إشارة إلى أنه ليس فيه طلب وإرادة بل المسألة أوقعت عليه (**وكان إرادتك فيها**) أي في المناظرة

أن تظهر الحق ولا تضيع الحق جاز حينئذ البحث، لكن لتلك الإرادة علامتان:

إحداهما أن لا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك.

والثانية: أن يكون البحث في الخلاء أحب إليك من أن يكون في الملاء واسمع إني أذكر لك هنا فائدة.

في تلك المسألة (**أن تظهر الحق ولا تضيع الحق**) فيه إشارة إلى أنه لو أهمله لضاع الحق وإلى أنه لو ظهر في يد خصمه لقبل واعترف إذ لو أنكر لضاع الحق (**جاز حينئذ البحث**) أي المباحثة، لعل المراد من الجواز هو الإمكان العام أي لا يمتنع فيشمل الوجوب والندب والإباحة كما في محاجة الخليل صلوات الله على نبينا وعليه مع نمرود عليه ما يستحق.

قال الإمام البزازي بعدما قال: ودفع الخصم وإثبات المذهب مما يحتاج إليه، وقول من قال إن تعلم الكلام والمناظرة فيه مكروه مردود بقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: الآية 83] إلى قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: الآية 83] دل قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلخ إشارة إلى مناظرته في إثبات التوحيد وجعله من حجج الله تعالى مضيفاً إلى نفسه على شرفه إذ شرف العلوم بقدر شرف المعلوم انتهى.

(**لكن لتلك الإرادة علامتان**) فعند وجود مجموع العلامتين يعلم ذلك الجواز.

(**إحداهما أن لا تفرق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك**) في الغيرة والمسرة القلبية.

(**والثانية: أن يكون البحث في الخلاء أحب إليك من أن يكون في الملأ**) أي عند مجمع الناس الظاهر أنه مما يستلزمه الأولى فتصريحه لزيادة الاعتناء.

(**واسمع**) أي واعلم (**إني أذكر لك هنا فائدة**) أي مناسبة لهذا المقام وإن لم يكن من فروع المقام وأمثلته إذ المناظرة بين العالمين وما يذكر هنا بين العالم والجاهل والمناسبة في مجرد أصل السؤال.

اعلم أن السؤال من المشكلات عرض مرض القلب إلى الطبيب والجواب له سعي لإصلاح مرضه واعلم أن الجاهلين المرضى قلوبهم والعلماء الأطباء والعالم الناقص لا يحسن المعالجة والعالم الكامل لا يعالج كل مريض بل يعالج من يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح.

وإذا كانت العلة مزمنة أو عقيماً لا يقبل العلاج. ....

والفائدة قوله: (**اعلم أن السؤال من المشكلات**) أي المسائل الحقة الغير المعلومة (**عرض مرض القلب**) أي كعرض مرض القلب فالكلام من قبيل زيد أسد أي تشبيه بليغ لأن السؤال كالعرض والإشكال أي عدم العلم يعني الجهل كمرض القلب في الإهلاك والإتلاف عند الإهمال إذ الجهل يهلك الدين كما أن المرض يهلك البدن (**إلى الطبيب والجواب له**) أي السؤال (**سعي لإصلاح**) لدفع (**مرضه**) بالأدوية والمعالجة المناسبة (**واعلم أن الجاهلين**) قوله (**المرضى قلوبهم**) خبر أن (**والعلماء الأطباء**) مبتدأ وخبر (**والعالم الناقص**) في العلوم الشرعية الدينية وإن كان كاملاً في غيرها (**لا يحسن المعالجة**) بل يفسد كالطبيب الجاهل ربما يفسد البدن بمعالجته لعدم معرفة الدواء الدافع للمرض المخصوص (**والعالم الكامل**) أي العارف أحوال أمراض القلب ومرتبته (**لا يعالج كل مريض**) بجواب الإشكال (**بل يعالج**) مرض (**من يرجو فيه قبول المعالجة والصلاح**) إما بالكشف أو بالقرائن السابقة أو الحالية وأكثر ذلك بين العلماء الظاهرية والصوفية والعالم الكامل فيه إما لا يساعده ولا يحصي عن

إشكاله أصلاً أو يجيب بأمر مناسب بحال السائل على وجه لو تأمل أو اعتبر ينزجر به عن إنكاره الطبيعي أو يؤخر جوابه بوقت آخر عسى أن يتحول إنكاره إلى هذا الوقت أو يجيب جواباً إلزامياً لا تحقيقياً فإنه لا يدرك الجواب الحقيقي لغاية دقته أو يمكن إدراكه لكنه يعلم عدم قبوله تعنتاً ومكابرة.

(وإذا كانت العلة) المرض **(مزمنة)** مرضاً مزمناً نوع من الفلج لا يقبل العلاج إلى أن يموت وهو مشهور عند الفقهاء **(أو عقيماً)** العقم بالفتح أو الضم جرح أو مرض لا يتصور البرء منه أو لا يرجى، فقوله: **(لا يقبل العلاج)**

فحذاقة الطبيب أن يقول: هذا لا يقبل العلاج فلا يشتغل بمداواته لأن فيه تضييع العمر.

ثم اعلم أن مرض الجهل على أربعة أنواع أحدها: من كان سؤاله واعتراضه عن حسد وبغض، فكلما تجيبه بأحسن الجواب وأفصحه وأوضحه لا يزيد له ذلك إلا غيظاً وحسداً، ....

كالتفسير لهما **(فحذاقة الطبيب أن يقول: هذا لا يقبل العلاج)** لمعرفته حقيقة المرض **(فلا يشتغل بمداواته)** أي المريض **(لأن فيه تضييع العمر)** وإضاعة المال.

(ثم اعلم أن مرض الجهل) من قبيل لجين الماء أي الجهل الذي كالمرض **(على أربعة أنواع)** أحدها يقبل العلاج والباقي لا يقبل، أما الذي لا يقبل **(أحدها: من كان سؤاله واعتراضه عن حسد وبغض)** الحسد أن تحب زوال نعمة الغير أو تحب نزول مصيبة به وهو غير الغبطة الجائزة وهو اشتهاء مثل نعمة الغير بلا محبة زوالها، وأما الحسد ممن يستعين بالنعمة على المعاصي فجائز لأنه في الحقيقة طلب زوال الظلم وسببه كبر وعداوة وخبث النفس، ثم الحسد إن وقع في القلب بلا اختيار ثم دفع فلا بأس به اتفاقاً وإن كان باختيار وعمل بمقتضاه نحو ظهور أثره في الخارج فحرام اتفاقاً وإن لم يعمل بذلك فحرام عند المصنف.

لكن ظاهر بعض الأحاديث نحو: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها**

ما لم يتكلم به أو يعمل به»، وفي حديث آخر: **«إذا حسدت فلا تبغ على المحسود بالقول والفعل»** يشعر عدم الحرمة كما روي عن الحسن رحمه الله تعالى: الحسد غمة لا يضرك ما لم تبده. **(فكلما تجيبه بأحسن الجواب)** بأن يطابق سؤاله ويحسم مادة إشكاله **(وأفصحه)** لعله بعبارة لطيفة **(وأوضحه)** بحيث لا يرتاب في فهمه لغاية وضوحه **(لا يزيد له)** أي للسائل الحاسد **(ذلك)** أي ذلك الجواب الحسن **(إلا غيظاً)** أي غضباً **(وحسداً)** من قبيل تأكيد الذم بما يشبه المدح والمأمول الطبيعي أن يزيد محبة ومسرة فهذا السائل لا يريد إظهار الصواب بل أظهر أن ليس له غرض ممدوح فيجب متاركته بما عليه من مرضه فظهر أنه ممن ﴿فِي

فالطريق أن لا تشتغل بجوابه. شعر:

كل العداوة قد ترجى إزالتها — إلا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغي أن تعرض عنه وتترك مع مرضه قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ﴾ [النّجْم: الآية 29]. **والحسود بكل ما يقول ويفعل يوقد النار في زرع عمله، كما قال النبي عليه السلام: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».**

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البَقَرَة: الآية 10]. **(فالطريق أن لا تشتغل بجوابه)** إذ لا فائدة في الجواب بل المتوقع هو الضرر فالتحاشي لازم. فإن قيل: قد ذكروا له علاجاً علمياً وعملياً وقلعياً فكيف لا يفيد الجواب، قلت: ذلك من الوجدانيات التي يتعذر الإلزام بها وما ذكرت إنما هو لمنصف مريد الحق ومسترشد يريد منك إزالة مرضه أو ذلك بالنسبة إلى نفس الحاسد لا من الغير.

(شعر: كل العداوة قد ترجى) من الرجاء **(إزالتها)** أي إزالة الغير إياها إما بالنصائح والمواعظ أو الأدلة والحجج والبيان **(إلا عداوة من عاداك)** من العداوة **(عن حسد)** فإنها ليس بمرجو الإزالة. لعل لهذا عد الحسود في الحديث من الذين يدخلون النار بغير حساب.

(فينبغي أن تعرض عنه وتتركه مع مرضه) من الغم والحزن وضيق النفس

لأن ضرره راجع إليه في الدنيا والآخرة ولا يضر محسوده بل قد ينفع (**قال الله تعالى**: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [النّجم: الآية 29]) الآية، لعل الأعلى كون المراد من الذكر القرآن إذ من حكم القرآن حرمة نحو الحسد فمن لم يترك الحسد فقد أعرض عن الذكر (﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ [النّجم: الآية 29]) الآية، إذ الحسود لا يريد بحسده إلا غرضاً دنيوياً فمن لا يريد الدنيا لا يجترىء على الحسد بل يندم من ساعته ويتوب. (**والحسود بكل ما يقول**) قولاً متسبباً عن حسده (**ويفعل**) كذلك لا مطلق كل قول وفعل منه (**يوقد النار في زرع عمله**) يعني كما أن النار تتلف الزرع كذلك الحسد يتلف العمل (**كما قال النبي عليه السلام**: «**الحسد يأكل الحسنات**) أي يزيل ويبطل (**كما تأكل النار الحطب**») لا يخفى أن الظاهر من كلام

والثاني: أن يكون علته من الحماقة وهو لا يقبل العلاج كما قال عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: إني ما عجزت من إحياء الموتى وقد عجزت من معالجة الأحمق.

المص هنا ما ظهر أثره في الجوارح وقد سمعت من مذهب المص أنه إن وجد فيه الاختيار وإن لم يظهر أثراً خارجياً فحرام إلا أن يقال مراده بيان ما هو أشد ولم يكن في كلامه ما يدل على حصر ما ذكره إذ ذكر شيئاً غير مناف لما عداه، ثم إنه لا حبط لطاعة المؤمن بمعصيته ولا لمعصيته بطاعته عند أهل الحق وظاهر كلام المصنف هنا يشعر حبط الحسنة بالسيئة وهو ظاهر مذهب أبي هاشم وأبي علي، وقد أورد عليه أنه خرق للإجماع بل ملائم لمذهب جمهور المعتزلة من أن كبيرة واحدة تحبط جميع الطاعات.

فأجيب بأن المراد إبطال إضعاف الحسنات لا أصلها ويمكن أن يريد بالإبطال نقل حسنات الحاسد إلى المحسود لا سيما إذا طول اللسان فيه فهو كمن يرمي عدوه بحجر فلم يصب عدوه وعاد إلى عينه فأعماه، والتوجيه أن الحسد يؤدي إلى الكفر والكفر حابط للحسنة إجماعاً لا يخلو عن بعد كما لا يخفى.

(**والثاني**) من الذي لا يقبل العلاج (**أن يكون علته**) أي علة الجهل ومرضه

(من الحماقة) أي البلادة والغباوة وضد الذكاء والفطنة **(وهو)** أي المرض الذي من الحماقة **(لا يقبل العلاج)** لعل المراد من عدم القبول هو عسر العلاج وإلا قالوا: علاجه السعي والجد والمواظبة في التعلم، أو المراد من الحماقة صاحب قوة بلادة في نهاية لكن لا يناسبه سياق الكلام. **(كما قال عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام)** لعل مثله مبني على الرواية عن النبي ﷺ وإلا فما يؤخذ من كتبهم أو يسمع من رهبانهم مما لا يصلح للاحتجاج به ودعوى في كل قرن إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ليس لمسموع **(إني ما عجزت من إحياء الموتى)** إذ من معجزته إحياء الموتى بإذن الله تعالى **(وقد عجزت من معالجة الأحمق)** فمعالجة الأحمق أصعب من إحياء الموتى يشكل أنه إن كان على طريق المعجزة فهما في عدم الصعوبة متساويان وإن على العادة، فالإحياء ممتنع ومعالجة

وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زماناً قليلاً ويتعلم شيئاً من العلم العقلي والشرعي فيسأل ويعترض من حماقته. . . . .

الأحمق قد يمكن وإن أريد من الإحياء ما هو بطريق المعجزة ومن المعالجة ما هو بطريق العادة فلا فائدة في الاستصعاب. فلعل الكلام مبني على الفرض والتنظير يعني لو كان الإحياء مقدوراً عادياً للبشر يقتضي على مقاساة معالجة الأطباء للأمراض الصعبة زيادة عسر وقوة صعوبة، فعلاج الأحمق أعظم من ذلك عسراً. أو المراد من الموتى هو الكفار يعني أمكن معالجة الكفار بإفهام الحق بطريق المعجزة أو النصح بالأدلة دون الأحمق منهم أو من غيرهم.

وفي محاضرة الإمام الثعالبي عن عيسى عليه الصلاة والسلام: عالجت الأكمه والأبرص فأبرأتهما وأعياني علاج الأحمق. فعلى هذا يمكن أن يراد بالموتى ذوو أمراض شديدة كالأكمه والأبرص.

وعنه في المحاضرات أيضاً: لا تنطقوا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ولا تمنعوها عن أهلها فتظلموهم ولا تطرحوا الدر تحت أرجل الخنازير ولا تعلقوا الجواهر في أعناق الكلاب.

فعلى هذا يمكن أن يراد من الحماقة ما لا يكون غبياً أصلياً بل الحماقة

تختلف باختلاف المسائل إذ من يكون عاقلاً فهيماً بالنظر إلى بعض المسائل يمكن أن يكون بليداً غبياً بالنظر إلى أخرى وإليه يميل كلام المصنف.

(وذلك رجل يشتغل بطلب العلم زماناً قليلاً) القلة يعم الحقيقة وهي ظاهرة والحكمية وهي أن يكون الزمان كثيراً في نفسه لكن فهم الطالب بطيء أو سريع لكن للمطلوب غاية خفاء **(ويتعلم شيئاً من العلم العقلي)** الظاهر أن المراد من العقلي علم ذات الله تعالى وصفاته يعني علم العقائد والكلام إذ لا بد من كون أصل هذا العلم مأخوذاً من العقل وإن كان تطبيقه إلى الشرع لازماً في كونه معتداً به كما قرر في محله **(والشرعي فيسأل)** سؤال اعتراض، فقوله: **(ويعترض)** قرينة وعطف تفسير **(من حماقته)** إذ العاقل الذكي يتفطن ويعلم حقيقته فلا يسأل أو يسأل لكن لا على سبيل الاعتراض بل على سبيل العرض، وعلامته هو التنبه

على العالم الكبير في العقلي والشرعي. وهذا الأحمق لا يعلم أن ما أشكل عليه هو أيضاً مشكل للعالم الكبير، فإذا لم يتفكر هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة فينبغي أن لا يشتغل بجوابه.

والثالث: أن يكون الطالب مسترشداً وكل ما لا يفهم من كلام الأكابر يحمل على قصور فهمه لغاية دقة الكلام. . . . .

بإشارة العالم الكبير **(على العالم الكبير)** الممضي عمره **(في العقلي والشرعي)** لعل ذلك كالسؤال عن كنه ذاته تعالى وكنه صفاته كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يزال الناس يسألون حتى يقال هذا خلق الله تعالى فمن خلق الله فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمنت بالله ورسله**». وفي رواية: «فليستعذ بالله ولينته».

وفي الصحيحين أيضاً عن المغيرة ابن شعبة أنه نهى النبي ﷺ عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال. وأيضاً يمكن أن يلحق عليه نحو السؤال عن المشكلات ومواضع الغلط للتغليط والتخجيل، وأما السؤال في ذلك للتعليم أو التعلم أو اختبار الأذهان أو الحث على التأمل فليس من هذا الباب بل مستحب

كما في الطريقة المحمدية.

(وهذا الأحمق لا يعلم أن ما أشكل عليه هو أيضاً مشكل للعالم الكبير) حتى روي عن باب مدينة العلم علي كرّم الله وجهه ورضي الله عنه:

العجز عن إدراك الإدراك إدراك والبحث عن سر ذات الله إشراك

والجزء الأول أيضاً مروي عن الصدِّيق الأعظم رضي الله عنه. **(فإذا لم يتفكر)** الأحمق المذكور **(هذا القدر يكون سؤاله من الحماقة فينبغي أن لا يشتغل بجوابه)** لعل ذلك عند علمه إصراره على سؤاله عند التنبيه عليه بامتناع الجواب عنه وإلا فالظاهر أنه ليس من هذا الباب والله أعلم.

(والثالث) مما لا يقبل العلاج **(أن يكون الطالب مسترشداً)** يطلب رشده **(وكل ما لا يفهم من كلام الأكابر)** سيما المتصوفة **(يحمل على قصور فهمه لغاية دقة الكلام)** ونهاية لطافته أو لبنائه على اصطلاح خاص بهم لغرض عدم اطلاع

وكان سؤاله للاستفادة لكن يكون بليداً لا يدرك الحقائق فينبغي الاشتغال بجوابه أيضاً كما قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

وأما الواحد الذي يقبل العلاج فهو أن يكون مسترشداً عالماً عاقلاً ذكياً لا يكون مغلوب الحسد والغضب وحب الشهوات والجاه والمال ويكون طالب الطريق المستقيم ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنت وامتحان.

الأجانب لكونه سراً بينهم **(وكان سؤاله للاستفادة لكن يكون بليداً)** غبياً أو ذكياً لكن لا يكون أهلاً لما سأل عنه فيكون بليداً بالنسبة إليه **(لا يدرك الحقائق)** لخفائه **(فينبغي الاشتغال بجوابه أيضاً)** لعدم ظهور فائدته فالاشتغال بالجواب عبث وتضييع وقت لكن المناسب أن يجيب جواباً مناسباً لحاله وإن كان على خلاف مقتضى الحال أو ينبه على إشكاله وعدم اقتدار فهمه إياه **(كما قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)** ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في محل: «اللهم إني أعوذ بك منك» وفي محل آخر: **«أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده»**. قال شراح الحديث: الأول

فيما كان السامع من الخواص يعرف أن النفع والضر والخير والشر من الله تعالى فقط، والثاني فيما كان السامع من العوام لا يقدر على فهم ذلك.

لعل من هذا القبيل ما قال السيوطي في رسالته المستقلة وتبعه أبو السعود إن النظر والبحث في كلمات ابن العربي ليس بجائز ومن تكلف في تأويله ليس بمصيب وقد وقع النهي السلطاني عن مطالعة كتبه وما خطأ بناء على ظاهر كلامه فخطأ إذ هو رجل فاضل صالح بل ولي من أولياء الله تعالى خطأه على القارىء وضلله لاقتضاء ظاهر كلامه الخطأ بكلام طويل لا يتحمله مثل هذه الكراسة.

(**وأما الواحد الذي يقبل العلاج فهو أن يكون مسترشداً عالماً عاقلاً ذكياً**) فهماً فطناً (**لا يكون مغلوب الحسد**) ومقهوره (**والغضب وحب الشهوات والجاه**) من حيث العلم أو من غيره (**والمال ويكون طالب الطريق المستقيم ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنت وامتحان**) هذا بالنسبة إلى ما قبله كالمستغني عنه لكنه لزيادة الاعتناء والاهتمام، ذكره على طريق التكرير.

وهذا يقبل العلاج فيجوز أن يشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك إجابته.

والثاني: مما تدع هو أن تحذر وتحترز من أن يكون واعظاً أو مذكراً لأن فيه آفة كثيرة إلا أن تعمل بما تقول أولاً ثم تعظ به الناس.

(**وهذا يقبل العلاج فيجوز أن يشتغل بجواب سؤاله**) لانتفاء المانع من الاشتغال بالجواب (**بل يجب عليك إجابته**) بالجواب عن سؤاله لعل هذه عند تعينه وكأن السؤال من مسائل الدين والأولى بل قد يجب إذ الوجوب حينئذ ليس بكلي بل يسن أو يستحب أو يباح.

(**والثاني: مما تدع هو أن تحذر**) من الحذر بمعنى الفرار (**وتحترز**) لعل المراد من الثاني هو التكلف في القرار والإفراط فيه فتأكيد بل تأسيس وإن كان على الوجهين من قبيل عطف التفسير (**من أن يكون واعظاً أو مذكراً**) في مجامع الناس على الهيئة المتعارفة في زماننا وإلا فقد قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: الآية 55] وقال ﷺ: «**إن الدين النصيحة**» الحديث (**لأن فيه**) أي في الوعظ (**آفة**) ومضرة (**كثيرة**) كالرياء والتباهي والكبر والعجب

والتمدح.

فإن قيل: إن غاية العظة والتذكير راجع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو واجب والأصح أن العمل ليس بشرط وإن كان ذلك أولى. قلت: وجوابه إنما هو على الكفاية فلعله حاصل بالغير وكونه عاملاً بما أمر به ونهى عنه عمل بالعزيمة، وأنه إذا تعارض الواجب مع الحرمة يرجح جانب الحرمة وإن كان الواجب راجحاً عند تعارضه مع البدعة والكراهة. وظاهر أن ما ذكر من قبيل الحرام نعم الكلام في وقوع ما ذكر قطعاً أو ظناً وأما عند كونه احتمالاً فظاهر أنه لا يمنع فيه ما سيذكره من الشرطين، كيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذّاريَات: الآية 55].

(إلا أن تعمل بما تقول أولاً ثم تعظ به الناس) قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية 44]، ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصَّف: الآية 2] ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ [غَافِر: الآية 35]، شعر:

فتفكر فيما قيل لعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام يا ابن مريم عظ نفسك، قال: اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي ربك.

وإن ابتليت بهذا العمل احترز عن خصلتين:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو مريض

وفي الفوائح: ومن عجب الدنيا طبيب مصفر وأعمش كحال وأعمى منجم.

حكي أن قوم الشيخ عبد الوهاب الشعراني سألوا وافد مواعظة من الشيخ ولم يجد الشيخ بداً من إلحاحهم فقال: سأشاور وأتأمل فأجيب بواحد من لا ونعم، فجاء إلى بيته وسأل عياله لا قرب لي منكم وأنتم عالمون بأحوالي والقوم يطلبون مني نصيحة فهل لي قصور وإساءة فأتوب عليه، قال جميعهم: لا نعلم منك شيئاً غير الخير. فتهيأ الشيخ للوعظ فجاءت جارية من الباب فقالت: هل استحللت شقة التفاحة التي أكلت من النهر جاء بها النهر فقال: لا فأعتقها ثم ذهب إلى صاحب التفاحة فوجده فإذا هو المجوسي فذكر القصة وطلب الحق فقال على طريقة المزاح

تعجباً لطلبه لمثل هذا الشيء الحقير لا أحل سآخذ منك يوم القيامة، فقال الشيخ: أعطيك كذا، فامتنع المجوسي إلى أن قال الشيخ: جميع مالي لك وأنا عبدك إن شئت استخدم وإن شئت بع، فامتنع فتضجر وتفجع ورجع باكياً وقائلاً: كيف يكون حالي عند حضور ربي بخصومة هذا الكافر، فرق قلبه وندم على قوله واستدل به على حقية دينه وألحق الشيخ من خلفه فآمن بحرمة ورع الشيخ وحاله.

(فتفكر فيما قيل) من طرف الله تعالى **(لعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام)** هذا كما سمعت سابقاً مبني على أخبار نبينا عليه الصلاة والسلام وإلا فالشريعة السابقة لا تكون شريعة لنا **(يا ابن مريم عظ)** من الوعظ **(نفسك)** لعل المراد من وعظ نفسه هو العرض على نفسه **(قال: اتعظت)** أي قبلت وعظك وعملت بموجبه **(فعظ الناس وإلا فاستحي ربك)** ولهذا قيل: أحسن العظات ما بدأت به نفسك وأجريت به أمرك.

(وإن ابتليت بهذا العمل) يعني إن لم يمكن الحذر والاحتراز وابتليت بالعظة **(احترز عن خصلتين)**:

الأولى: التكلف في الكلام بالعبارات والإشارات والطامات والأبيات والأشعار لأن الله تعالى يبغض المتكلفين، والتكلُّف المجاوز عن الحد يدل على خراب الباطن وغفلة القلب.

ومعنى التذكير أن يذكر العبد نار الآخرة وتقصير نفسه في خدمة الخالق ويتفكر في عمره الماضي الذي أفناه فيما لا يعنيه، ....

(الأولى: التكلف في الكلام بالعبارات) الغريبة **(والإشارات)** اللطيفة **(والطامات والأبيات والأشعار لأن الله تعالى يبغض المتكلفين)** فيه إشارة إلى أنه لو لم يكن بتكلف بل بسهولة وملكة راسخة لا منع منه كيف والشعر والسجع والفصاحة في الخطابة والتذكير ولو مع تكلف يسير مستحب لأن فيها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها إذا لم يقارن غرض سوء كالرياء وحب الثناء. روي أنه ﷺ قال: **«إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه بلفظ الكلام كما يتخلل البقر الكلأ»** كما في الطريقة

بلفظ الكلام كما يتخلل البقر الكلأ» كما في الطريقة.

(**والتكلف المجاوز**) أي التكلف الذي يتجاوز (**عن الحد**) إذ اليسير كما عرفت لا يعبأ به (**يدل على خراب الباطن**) إذ المتوجه إلى حال باطنه لا يقدر إلى تكلف لسانه لأن الذهن بسيط لا يقدر أن يتوجه إلى شيئين في زمان واحد وإن من يشتغل على تعمير باطنه لا يشتغل على تعمير ظاهره (**وغفلة القلب**) ويمكن أن يراد من غفلة القلب هو الغفلة عن تعمير أخلاقه الحميدة إذ التكلف في ذلك إنما هو لأغراض ذميمة كحب المدح والرياسة والرياء.

(**ومعنى التذكير**) أي الوعظ (**أن يذكر**) من التذكير (**العبد**) الواعظ غيره (**نار الآخرة و**) يذكر (**تقصير نفسه في خدمة الخالق**) التي تقتضيه العبودية التي خلق لأجلها الثقلان والتقصير إما بأصل العبادة فرائض أو واجبات أو سنن أو مستحبات أو في وصفها أي في إكمالاتها (**وبتفكر في عمره الماضي الذي أفناه فيما لا يعنيه**) والمعنى الأصلي لما لا يعني ما يستحب تركه كحكايات الأسفار والبحار والجبال والأطعمة إذا لم يقارن أغراضاً حميدة كدفع الوحشة وإيجاب الإلفة ودفع المهابة والتكبر وكذا المزاح.

ويتفكر بما بين يديه من العقبات من سلامة الإيمان في الخاتمة وكيفية حاله في قبضة ملك الموت، وهل يقدر جواب منكر ونكير ويهتم بحاله يوم القيامة ومواقفها، وهل يعبر عن الصراط سالماً أم يقع في الهاوية.

ويستمر ذكر هذه الأشياء في قلبه فيزعجه عن قراره في الدنيا فغليان هذه النيران ونوحة هذه المصائب تسمى تذكيراً وإعلام الخلق وإطلاعهم..........

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**».

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: أنه توفي رجل واستبشر رجل آخر بالجنة فقال رسول الله ﷺ: «**ما يدريك لعله يتكلم بما لا يعنيه أو يبخل بما يعنيه**».

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال ﷺ: «**أكثر الناس ذنوباً أكثرهم كلاماً في ما لا يعنيه**».

قال في الطريقة المحمدية: ووجه أن يجره غالباً إلى ما لا يحل (**ويتفكر بما بين يديه من العقبات من سلامة الإيمان في الخاتمة**) عن سلب الشيطان ويتفكر في الأشياء التي تكون سبباً لحسن الخاتمة ولسوء الخاتمة نعوذ بالله تعالى (**وكيفية حاله في قبضة**) أي قبض روحه (**ملك الموت**) فاعل للقبض من الختم على الإيمان رزقنا الله، والختم على الكفر نعوذ بالله تعالى (**وهل يقدر جواب منكر ونكير**) بأحسن الجواب ويسلم عن عذاب القبر أو لا (**ويهتم بحاله يوم القيامة**) من الحساب والجواب والوزن وإعطاء دفاتر الأعمال (**ومواقفها**) والشمس في الفوق قدر ميل (**وهل يعبر**) من العبور بمعنى المرور (**عن الصراط سالماً**) بلا عقاب ولا عتاب ولا سلاسل وأغلال ومقارنة كافر وشيطان (**أم يقع في الهاوية**) اسم لمطلق النار لا ما يقال من اختصاص بعض دركاتها.

(**ويستمر ذكر هذه الأشياء في قلبه**) فلا ينسيه الشيطان بأفكار الدنيا (**فيزعجه**) أي يقطع الذكر الذاكر (**عن قراره في الدنيا**) ومحبته بها (**فغليان هذه النيران**) مما ذكر (**ونوحة هذه المصائب**) إذ لا مصيبة فوق ذلك (**تسمى تذكيراً**) لكونها مذكراً للمعاد بل المبدأ أيضاً (**وإعلام الخلق وإطلاعهم**) على هذه الأشياء تسمى وعظاً

وتنبيههم على تقصيرهم وتفريطهم وتبصيرهم بعيوب أنفسهم فيمس حرارة هذه النار أهل المجلس وتجزعهم تلك المصائب ليتداركوا العمر الماضي لقدر الطاقة ويتحسروا عن الأيام الخالية في غير طاعة الله.

كما لو رأيت أن السيل قد هجم على دار أحد وكان هو وأهله فيها فتقول: الحذر الحذر فروا من السيل.

كما سيأتي (**وتنبيههم على تقصيرهم وتفريطهم وتبصيرهم بعيوب أنفسهم فيمس حرارة هذه النار أهل المجلس وتجزعهم**) أي تقلعهم (**تلك المصائب**) عن الدنيا ومبالاتها، الظاهر أنه فاعل تجزعهم (**ليتداركوا العمر الماضي لقدر الطاقة**) الذي فاتوا فيه وظائف العبادات اللازمة والفاضلة بالاستحلال ورد المظالم والقضاء وتفريغ الكفارات وأداء المنذورات والتوبة الصادقة والنوافل والمندوبات لا سيما

استغراق الأوقات بذكر الله الذي لا بد له من الملاقاة **(ويتحسروا)** من التحسر كالتحزن **(عن الأيام الخالية)** أي السالفة **(في غير طاعة الله)** بل بارتكاب محرماته واشتغال منهياته فضلاً عن المكروهات والشبهات سيما عند تكاثر حقوق العباد.

حكي عن الحريري أنه قال: دخلت على الجنيد وهو مهتم فقلت: ما لك، فقال: فاتني شيء من وردي، فقلت: تعبد بعد، فقال: كيف وهي أوقات معدودة.

قال علي رضي الله عنه: ينبغي أن يكون للمرء أربع ساعات من النهار ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يجالس فيها العلماء يبصرونه بأمر الله وينصحونه وساعة يخلي بين نفسه ولذاتها فيما يحل ويجمل. وهذه الجملة من قوله: وإعلام الخلق وإطلاعهم إلى هنا على هذا الطريق يسمى وعظاً. فإذا علمت معنى التذكير والوعظ فقد علمت عدم الاحتياج فيهما إلى تكلف العبارات وغيره بل عدم صحته.

ثم بالغ في منع ذلك لابتلاء العامة فأراد تنظيراً له فقال: **(كما لو رأيت أن السيل قد هجم على دار أحد وكان هو وأهله فيها)** بحيث يتلفه ويهلكه بعياله ومتاعه **(فتقول: الحذر الحذر)** أي احذر الحذر احذر الحذر أو عجل الحذر الحذر **(فروا من السيل)**.

وهل يشتهي قلبك في هذه الحالة أن تخبر إلى صاحب الدار خبرك بتكلف العبارات والنكت والإشارات فلا تشتهي البتة، فكذلك حال الواعظ فينبغي أن يجتنب عنها.

والخصلة الثانية: أن لا تكون همتك أن ينعر الخلق في مجلسك ويظهروا الوجد ويشقوا الثياب ليقال: نعم المجلس هذا، لأن كله ميل إلى الدنيا وهو يتولد من الغفلة.

بل ينبغي أن يكون عزمك وهمتك أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة

(وهل يشتهي قلبك) ويخطر به **(في هذه الحالة أن تخبر إلى صاحب الدار خبرك)** الذي هو هجوم السيل مفعول تخبر **(بتكلف العبارات والنكت والإشارات فلا تشتهي البتة، فكذلك حال الواعظ فينبغي أن يجتنب عنها)** لعل مراده الإفراد

وإلا فما يكون أدخل في التحريض والإغراء والترغيب والتنفير والترهيب كما يقتضيه المقدمات الخطابية التي اقتضاها ذلك المقام، فالظاهر ليس بممنوع بل الاستحباب بأغراض حميدة ليس ببعيد.

(والخصلة الثانية) من اللتين يلزم الاحتراز عنها **(أن لا تكون همتك)** أي قصدك في وعظك **(أن ينعر الخلق في مجلسك)** أي يجتمعوا في مجلسك يعني احترز من أن تقصد في وعظك جمع الخلق في مجلسك **(ويظهروا الوجد)** والشوق **(ويشقوا الثياب)** من وجدهم وشوقهم. روي أنه حين وعظ موسى عليه الصلاة والسلام مزق واحدهم قميصه فأوحى الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام: قل له مزق قلبك لا ثوبك **(ليقال: نعم المجلس هذا، لأن كله ميل إلى الدنيا)** لأنه عين حب المدح وجلب القلوب **(وهو يتولد من الغفلة)** أي غفلة القلب، وفيه إشارة إلى أنه لو كان ذلك لأمر أخروي كالترغيب إلى الآخرة والتنفير عن الدنيا فلا منع بل ممدوح. وبالجملة إن مثله مثل حال القلب فكل يعمل بما فيه لأن صاحب البيت أدرى بما في البيت وكل يعمل على شاكلته.

(بل ينبغي أن يكون عزمك وهمتك) يعني قصدك وسعيك من وعظك **(أن تدعو الناس من الدنيا إلى الآخرة)** حتى يقرعوا عن الدنيا بل يفروا منها مقبلين إلى

ومن المعصية إلى الطاعة ومن الحرص إلى الزهد ومن البخل إلى السخاء، ومن الغرور إلى التقوى، وتحبِّب إليهم الآخرة وتبغِّض عليهم الدنيا، . . . .

الآخرة بإسماع كراهة الدنيا ومضراتها وإعلام محاسن الآخرة ومنافعها إذ منافعها مع المضرات شؤم ومسراتها مع الحسرات محرم **(و)** تدعو **(من المعصية إلى الطاعة)** بإخبار طريق المعصية وغوائلها وما يترتب عليها من العذاب والعقاب وإيذان ماهيات الطاعات وفوائدها السرمدية ومنافعها الأبدية **(و)** تدعو الخلق **(من الحرص)** في الدنيا والطمع فيها **(إلى الزهد)** تركها والإعراض عنها.

قال في محاضرات الثعالبي: مما يتمثل به في التوراة: أوحى الله تعالى إلى الدنيا: من خدمك فاستخدميه ومن خدمني فاخدميه ومن خاف الله خافه كل شيء

ومن لم يخف الله خاف من كل شيء، يا موسى من أحبني لم ينسني ومن رجا نعمتي ألح في مسألتي المال يفنى والبدن يبلى والأعمال تحصى والذنوب لا تنسى.

(ومن البخل إلى السخاء) قال الشافعي رحمه الله: الحريص محروم والرزق مقسوم والبخيل مذموم والحسود مغموم.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: السخاء يبلغ صاحبه إلى أعلى الأعالي.

(ومن الغرور) إلى الدنيا **(إلى التقوى)** التي لا شيء أكرم منها عند الله تعالى وهي كلي مشكك يقبل الزيادة والنقصان أدناها التوقي عن الكفر وأعلاها التنزه عما يشتغل سره عن الحق تعالى منقطعاً إليه بالكلية لعل المراد هنا صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل وترك إلى ما لا بأس به عند بعض كما أفصح عنه قوله ﷺ: **«لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به»**، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية 13]، ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفَال: الآية 34]، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: الآية 132]. **(وتحبّب)** من التفعيل من المحبة **(إليهم الآخرة)** بذكر حقيقتها وبيان غايتها بنحو كون نعمها صافية سرمدية وشرابها خالية عن إثم ولاغية وفيها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القِيَامَة: الآيتان 22- 23] لاقية وبالفوز الأبدي والفلاح السرمدي باقية **(وتبغض)** تفعيل من البغض **(عليهم الدنيا)** وقد سمعت غير كرة ولا مرة مفاسدها

وتعلّمهم علم العبادة والزهد لأن الغالب في طباعهم الزيغ عن منهج الشرع والسعي فيما لا يرضى الله تعالى به والاشتغال بالأخلاق الرديئة غالب في طباعهم، فالقِ في قلوبهم الرعب وروِّعهم وحذِّرهم عما يستقبلون من المخاوف لعل صفات باطنهم تتغير ومعاملة ظاهرهم تتبدل، وتظهر الحرص والرغبة في الطاعة والرجوع عن المعصية.

وهذا طريق الوعظ والنصيحة، وكل وعظ لا يكون هكذا فهو وبال على ما قال وسمع.

(وتعلمهم علم العبادة) بأنواعها ومراتبها وفوائدها **(والزهد)** أي الإعراض عن

الدنيا (**لأن الغالب في طباعهم الزيغ**) أي الميل والانحراف (**عن منهج الشرع**) أي عن طريقه (**والسعي فيما لا يرضى الله تعالى به**) إذ النفوس مجبولة على المعاصي والمناهي (**والاشتغال**) ولأن الاشتغال (**بالأخلاق الرديئة**) أي الذميمة (**غالب في طباعهم فالقِ**) أمر من الإلقاء (**في قلوبهم الرعب**) أي الخوف (**وروعهم**) أي خوفهم (**وحذرهم**) أمر من التحذير (**عما يستقبلون من المخاوف**) يعني من المخاوف المستقبلة كما أشير عند قبض الروح والقبر والقيامة والجحيم (**لعل صفات باطنهم تتغير**) يعني لأجل تغير صفات باطنهم من الرديئة إلى الحميدة (**ومعاملة ظاهرهم تتبدل**) من الأعمال الفاسدة إلى الصالحة (**وتظهر الحرص**) والطمع (**والرغبة**) والمحبة والطلب (**في الطاعة والرجوع عن المعصية**) إلى الطاعة.

(**وهذا طريق الوعظ والنصيحة، وكل وعظ**) وتذكير (**لا يكون هكذا فهو وبال**) ووزر وإساءة (**على ما قال**) هكذا فيما عندنا من النسخة، فالأولى على من قال (**وسمع**) يعني يكون وزراً على القائلين والسامعين لعل وجه كونه وبالاً على السامعين إما كونه من آفات الأذن لأن ما لا يكون من جنس ما سبق يكون لا جرم لغواً وهذيانات وقصصاً وحكايات لا أصل لها، وإما أقاويل ضعيفة وكلمات سخيفة بل لا يخلو عن انحراف عقائد المسلمين والرخصة في ترك أكثر القربات الشرعية كما يقال: فساد كبير عالم متهتك. وقيل: ليس العلم بكثرة الروايات

بل قيل: إنه غول وشيطان يذهب بالخلق عن الطريق ويهلكهم.

فيجب عليهم أن يفروا منه لأن ما يفسد هذا القائل من دينهم لا يستطيع مثله الشيطان ومن كان له يد وقدرة يجب عليه أن ينزله من منابر المسلمين ويمنعه عما باشر فإنه من جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثالث: مما تدع هو أن لا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم، . . . . .

إنما العلم بكثرة الورع والخشوع والرعايات في الفرائض والواجبات والسنن والمستحبات وسائر القربات.

(**بل قيل إنه**) أي مثل هذا العالم (**غول**) في القاموس سحرة الجن والمنية

وشيطان يأكل الناس، وفي بعض اللغات: الغول نوع من الجن يتشكل بأشكال مختلفة يضل الناس عن سواء الطريق. فقوله: (**وشيطان يذهب بالخلق عن الطريق**) كعطف تفسير له، والباء في قوله بالخلق زائدة (**ويهلكهم**) كما قيل زلة العالم زلة العالم كما روي أنه كان قاص يبكي بمواعظه فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كمه طنبوراً وينقره ويقول: هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة.

(**فيجب عليهم**) أي على الخلق (**أن يفروا منه لأن ما يفسد هذا القائل**) أي الواعظ (**من دينهم لا يستطيع مثله**) أي مثل الواعظ من إفساد الدين (**الشيطان**) ومن هذا قيل شيطان الأنس أضل من شيطان الجن (**ومن كان له يد وقدرة**) عطف تفسير لليد أي على المنع بلا إيجاب فتنة كالأمراء والحكام (**يجب عليه أن ينزله**) من الإنزال كالهبوط (**من منابر المسلمين ويمنعه عما باشر**) من دعوى الوعظ (**فإنه**) أي المنع (**من جملة الأمر بالمعروف**) لعل الأولى أن تقتصر على قوله (**والنهي عن المنكر**) إذ قد عرفت إضلاله عباد الله عن الصراط المستقيم.

(**والثالث: مما تدع هو أن لا تخالط الأمراء والسلاطين ولا تراهم**) في بعض المواضع عن المص: إذا رأيت الأمير بباب الفقير فنعم الأمير ونعم الفقير وإذا رأيت الفقير بباب الأمير فبئس الفقير وبئس الأمير. وفي بعض المواضع عن «الطبقات» أرسل بعض السلاطين إلى الغزالي بأن جيء عندي فعظني وانصحني، فكتب الغزالي إليه: الذي ينصحك لا يصحبك والذي يصحبك لا ينصحك.

لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة، ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق والظالم،............

وقيل: الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك بواسطة العلوم.

قال في «الفتاوى»: لو افتخر الملوك نحن ظل الله على الأنام لافتخر العلماء الظل مزال نحن حامل علمه تعالى. والعلم صفة لازمة له تعالى وليس له زوال فلا يذل من أعزه الله تعالى بالمخالطة إلى الأمراء.

حكي أن الإمام أبا يوسف رحمه الله تعالى عند مجالسته مع هارون الرشيد

حكي أن الإمام أبا يوسف رحمه الله تعالى عند مجالسته مع هارون الرشيد غلب عليه العطاس وعطس فقال هارون: أسأت ذلك عند حضور الملك، فقال أبو يوسف: بل أنت فعلت الإساءة لمثل هذا المقال بمن هو أعز وأعظم منك لأني إن أردت نصب مثلك أقدر في يوم واحد نصب أربعين مثلك أجمع الناس وأبايع على من شئت وأما أنت فلا تقدر على إتيان مثلي في أربعين سنة.

(لأن رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة) في «جامع الصغير»: إذا رأيت العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة فاعلم أنه لص وفي «قمع النفوس»: ألم تعلم أن النظر إلى وجه الظلمة يبطل الأعمال الصالحة فكيف بمن يسلم عليهم أو يجالسهم أو يؤاكلهم ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية 156] مما حل بالخلق من تلبيس مثل هذه الخبائث ولعمري إن الصادق مع الله تعالى لو خير بين أن يلقى حية وأن يجالس ظالماً على وجه المؤانسة لاختار لقاء الحية دون أن يرى وجهه. وفي وصايا بعض الصالحين: فاحذر حب الظلمة وموالاتهم ومخالطتهم فإذا خالطتهم فكن حذراً منهم لأن غاية بغيتهم تكميل دنياهم بك وموافقة هواهم إياك.

(ولو ابتليت بها دع عنك مدحهم وثناءهم) يعني لا تمدحهم **(لأن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق والظالم)** كأنه تلميح بل اقتباس إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش**» كما في «جامع الصغير» لعل مثل ما ذكر هنا بالنسبة إلى ملوك زماننا وإلا ففي الحديث: «**إنما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض**». وفي حديث آخر: «**ومن أكرم سلطان الله في الدنيا**

ومن دعا لطول بقائهم فقد أحب أن يعصى الله في أرضه.

والرابع: مما تدع أن لا تقبل شيئاً من عطايا الأمراء وهداياهم لأن الطمع منهم يفسد الدين لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة في ظلمهم وهذا كله فساد في الدين وأقل مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت من دنياهم أحببتهم، ....

أكرمه الله يوم القيامة». وفي حديث آخر: «ومن أهانه أهانه الله». (ومن دعا لطول

بقائهم فقد أحب أن يعصى الله في أرضه) بل يدعو بإصلاح حاله وعدالته ودفع ظلمه واستقامته وبكونه مظفراً ومنصوراً على أعدائه في الدين.

(والرابع: مما تدع أن لا تقبل شيئاً من عطايا الأمراء وهداياهم) وإن علمت أنها من الحلال **(لأن الطمع منهم يفسد الدين)** فإن قيل: القبول غير الطمع والمفسد للدين هو الطمع لا القبول، قلنا: القبول باعث ومفض إلى الطمع البتة والقبول مسبوق بالطمع أو المراد من الطمع مجرد القبول **(لأنه يتولد منه المداهنة ومراعاة جانبهم والموافقة في ظلمهم)** إذ الإنسان مجبول بمحبة من أحسن إليه. وقد قيل: الإنسان عبد الإحسان فأخذ عطياتهم يجعلك رقاً وعبداً ضرورياً لهم أي الظلمة وقد كنت مأموراً من قبل الله تعالى بعدم أدنى ميل على حكم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هُود: الآية 113] عقد عقبه تعالى بقوله: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هُود: الآية 113] **(وهذا كله فساد في الدين)** كما سمعت قوله، وقد نصب العلماء أميراً على الأمراء وأمارتهم عليهم إنما هي بالاستغناء عنهم لا الافتقار لهم **(وأقل مضرته أنك إذا قبلت عطاياهم وانتفعت)** أي أكلت **(من دنياهم أحببتهم)** وقد قيل: إن الظالم مع الصالح إذا كانا متحابين فالصالح يؤخذ لمحبته الظالم والظالم يرحم يغفر لمحبة الصالح. حكي أن عالماً من مقربي الملوك لقى في السوق عالماً من الفقراء الصالحين فكلما تملق وانبسط إليه فلم يتوجه العالم الفقير إليه فقال للعالم الفقير: إني أحبك، فقال: أما أنا فلا أحبك لتركك الجماعة، فقال: إني مشتغل بمهام العباد، فقال: هل يتصور تقديم مهام الإمام على مهام رب الأنام، فبكى وقال: يغفر الله لي لمحبتي إياك ويغفر لك الله

ومن أحب أحداً منهم يحب طول عمره وبقائه بالضرورة، وفي محبة بقاء الظالم إرادة الظلم على عباد الله تعالى وإرادة خراب العالم فأي شيء أضر من هذا بالدين والعاقبة.

إياك ثم إياك أن تخدع استهواء الشيطان أو قول بعض الناس لك بأن الأفضل والأولى أن تأخذ الدينار والدراهم منهم وتفرقهما بين الفقراء والمساكين

تعالى لبغضك إياي (**ومن أحب أحداً منهم يحب طول عمره وبقائه بالضرورة**) على حسب اقتضاء قاعدة المحبة (**وفي محبة بقاء الظالم إرادة الظلم على عباد الله تعالى**) لأنّ إرادة بقاء الظالم تستلزم إرادة بقاء ظلمه (**وإرادة خراب العالم**) فلو قيل: لم لا يجوز أن تقتضي المحبة الدعاء والنصح على الامتناع من الظلم والعدل والإنصاف على الرعية كما هو شأن العالم العاقل، قلنا: لو سلم تصور ذلك عن كل عالم فلا شك أنه يتضمن ولو في بعض الأحيان مثل ذلك المحذور. فإن قيل: فإن لم يكن مصاحبه عالماً ناصحاً لغلا في الجور على العباد فلعل في خلطة العالم منفعة عظيمة لأهل العالم، قلنا: روي عن علي رضي الله تعالى عنه: لا تصاحب بقوم إنهم يتكاملون بك وأنت تنقص بهم ولو سلم فلعل ذلك حاصل بغيرك من العلماء وأنت عد نفسك أني لست من رجال هذا المقام لأن نفسي طاغية لا تنقاد لي بل المناسب لهذا الشأن غيري (**فأي شيء أضر من هذا بالدين والعاقبة**) أي الآخرة بالجر عطف على الدين.

(**إياك ثم إياك**) يعني الحذر الحذر من (**أن تخدع استهواء**) من الهوى (**الشيطان أو قول بعض الناس لك**) وهو من شياطينهم يريدون إضلالك وهم في صورة صداقتك لكنهم في الأمر نفسِه غاية عداوتك ولقد صدق من قال: احذر من عدوك مرة ومن صديقك ألف مرة. وقيل أيضاً: العدو العاقل أولى من الصديق الغبي الجاهل (**بأن الأفضل**) الجار متعلق بالقول (**والأولى أن تأخذ الدينار والدراهم**) وقد قيل: آخر الدينار نار وآخر الدرهم هم (**منهم**) من الأمراء الواهبين (**وتفرقهما بين الفقراء والمساكين**) وليس ذلك في الأمر نفسه محبة وإحساناً بل كان بغضاً وعدواناً لأن أموالهم بعد تسليم حلها لا جرم أنها ليس

فإنهم ينفقون في الفسق والمعصية وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم، فإن اللعين قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة وآفته فاحش كثير قد ذكرناه في «إحياء العلوم» فاطلبه ثمة.

وأما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها، الأولى: أن تجعل معاملتك مع الله تعالى بحيث لو عامل معك بها عبدك ترضى أنت بها منه ولا يضيق خاطرك عليه ولا تغضب، وما ترضى لنفسك من عبدك المجازي لا يرضى الله تعالى عنك. .

بطيب وأن الله تعالى وإن قال: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا﴾ [البَقَرَة: الآية 168] لكن عقب ذلك بقوله: ﴿طَيِّبًا﴾ [البَقَرَة: الآية 168] ومن أظهر المجربات عند الفقراء الصالحين أن أكل أموالهم يسد أبواب الذكر ويفتح أبواب قسوة القلب ويحصل قبضاً ضرورياً ويفقد لذة العبادة **(فإنهم ينفقون في الفسق)** كالملاهي والملاعب والإسرافات **(والمعصية)** بل في نحو الخمر وسائر المحرمات والمكروهات **(وإنفاقك على ضعفاء الناس خير من إنفاقهم، فإن اللعين)** تعليل على مضمون قوله إياك أن تخدع إلى آخره **(قد قطع أعناق كثير من الناس بهذه الوسوسة وآفته فاش)** يعني شائع **(كثير قد ذكرناه في إحياء العلوم)** لو كان عندنا نسخة لذكرناه **(فاطلبه)** يا من عنده نسخته **(ثمة)** أي منه لأن هذه الكراسة لا تتحمل ذلك.

(وأما الأربعة التي ينبغي لك أن تفعلها، الأولى: أن تجعل معاملتك مع الله تعالى) في جميع الخدمات الإلٰهية ظاهراً وباطناً **(بحيث لو عامل معك بها)** أي بالمعاملة **(عبدك ترضى أنت بها)** أي بتلك المعاملة **(منه)** أي من عبدك **(ولا يضيق خاطرك عليه)** أي على العبد، يعني لا يقع في قلبك لأجله فتور وانكسار وإن لم تظهر ذلك على العبد **(ولا تغضب)** بأن تظهر الآثار على العبد كالضرب والشتم والعتاب. وبالجملة تكون راضياً عن العبد لإتيانه الخدمة على الوجه الأكمل والطرز الأولى على وفق مرادك **(وما ترضى لنفسك من عبدك المجازي)** إذ في الحقيقة أن ذلك عبد له تعالى بل كونه عبداً لك مجعول بجعل الله تعالى لأنهم لما استنكفوا أن يكونوا عباداً له تعالى جعلهم الله عباداً لعباده وعارض بعروض الكفر إذ الأصل في الإنسان هو الحرية والإسلام **(لا يرضى الله تعالى عنك)** وأنت

وهو سيدك الحقيقي.

والثاني: كلما عملت بالناس اجعل كما ترضى لنفسك منهم لا يكمل إيمان العبد حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه.

والثالث: إذا قرأت العلم أو طالعته ينبغي أن يكون علماً يصلح قلبك ويزكي نفسك كما لو علمت أن عمرك ما بقي غير أسبوع بالضرورة لا تشتغل

عبده الحقيقي (**وهو**) أي الله تعالى (**سيدك الحقيقي**) يعني غلامك مع كونه عبداً مجازياً لك أنت لا ترضى عنه إذا لم يفعل على وفق مأمولك وأنت مع كونك عبداً حقيقياً له تعالى كيف يرضى الله تعالى عنك إذا لم تفعل على وفق ما طلبه منك على الوجه الأكمل في كل عبادة وطاعة قولية أو فعلية ظاهرة أو باطنة، وهو علام الغيوم وعالم الغيب والشهادة.

(**والثاني: كلما عملت بالناس اجعل كما ترضى لنفسك منهم**) لأنه (**لا يكمل إيمان العبد حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه**) هذا مضمون حديث في الصحيحين على رواية أنس رضي الله عنه: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»، ويدخل فيه ما عد من مكارم الأخلاق من الرفق واللينة والتواضع وعفو الإساءة وستر العيوب وترك الأذى قولاً وفعلاً وترك اللعن والسب والنميمة والحقد والحسد. وبالجملة كل معاملة من غيرك في حقك فترضى عنه وتكون بها فرحاً مسروراً فافعلها في حق غيرك حتى يكون إيمانك إيماناً كاملاً ويقرب إلى هذا المعنى قول علي رضي الله عنه: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته وأكل قوته واشتغل بطاعته وبكى على خطيئته فكانت نفسه في شغل والناس منه في راحة.

(**والثالث: إذا قرأت العلم أو طالعته ينبغي أن يكون علماً يصلح قلبك**) الظاهر من الإصلاح (**ويزكي نفسك**) كعلم الأخلاق وعلم التصوف والعمل (**كما لو علمت أن عمرك ما بقي غير أسبوع بالضرورة لا تشتغل فيها بعلم الفقه**) بالتدريس والمطالعة والتعلم إذ ليس ذلك مقصوداً لذاته بل المقصود منه هو العمل وأنت

بخبر الموت تعلم أنه لم يبق للعمل وقت وأنت تعلم أن الفقه من أشرف العلوم فما ظنك بغيره. واعلم أن المراد من ذلك بعدما حصل من الفقه بقدر ما يكمل

به نفسه وبعدما يغني عن غيره مما يحتاج إليه العامة وإلا فكيف يتصور المنع من علم هو فرض عين أو كفاية وقد روي عنه ﷺ: «**أفضل العبادة الفقه**»، وفي حديث آخر: «**ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين الله، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد**»، وفي حديث آخر: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»، وفي حديث آخر: «**فضل العالم على العابد سبعون درجة**» الحديث، وغيرها من الأحاديث الدالة على فضل العلم على العبادة.

وفي «الخلاصة»: النظر في كتب أصحابنا من غير سماع أفضل من قيام الليل. وفي «التجنيس»: تعلم الفقه أولى من تعلم القرآن وتعلم القرآن أفضل من صلاة التطوع، وطلب الفقه أفضل من جميع أعمال البر.

فإن قيل: مقتضى هذه الأحاديث وكذا قول الفقهاء أن يرجح جانب الفقه من الذي نعي، يعني الذي وصل إليه خبر موته في الأسبوع.

قلت: المراد ما هو بقدر الحاجة كما أشير، أو المراد المنع عن القصر على الفقه ويؤيده ما في «بستان العارفين»: ينبغي أن لا يقتصر على الفقه ولكن ينظر في علم الزهد وفي كلام الحكماء وشمائل الصالحين فإن الإنسان إن تعلم الفقه ولا ينظر في علم الزهد والحكمة قسا قلبه والقلب القاسي بعيد من الله تعالى، انتهى.

نعم الظاهر من صنيع المصنف أنه اختار أفضلية جانب العمل على العلم كما فهم من وصايا السيوطي، وقد سمعت وصية الخضر عليه السلام إلى موسى عليه وعلى نبينا السلام لعل هذا مذهب الشافعية، نعم من الحنفية من ذهب إلى ذلك كداود الطائي رحمه الله تعالى فإنه بعدما حصل الفقه ترك تعليمه واختار العمل وإن كان الأصح عند الحنفية أفضلية العلم لكونه عبادة متعدية إلى الغير ولذا فضل الذي يتعلم للتعليم على الذي يتعلم لأجل العمل.

(**والخلاف والأصول**) يعني أصول الفقه لا أصول الدين بقرينة قوله:

والكلام وأمثالها لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك بل تشتغل بمراقبة القلب ومعرفة صفات النفس.

والإعراض عن علائق الدنيا وتزكي نفسك عن الأخلاق الذميمة وتشتغل بمحبة الله تعالى، ....

(والكلام) أي ما عدا أصل مسائل العقائد الدينية فالمراد هو كلام المتأخرين الذي خلط بالفلسفيات وكثير من العقليات إذ العقائد الدينية أصل كل علم وعبادة **(وأمثالها لأنك تعلم أن هذه العلوم لا تغنيك)** وقد عرفت أن المراد هو التبحر فيها يعني وراء الحاجة الأصلية وإلا فكل عمل يتوقف على علمه **(بل تشتغل بمراقبة القلب)** هل فيه ذكر الله تعالى أو غيره وتخاطر شيئاً من الغوائل الذميمة أو لا **(ومعرفة صفات النفس)** من الأخلاق.

(والإعراض عن علائق الدنيا وتزكي نفسك عن الأخلاق الذميمة) هذا كالتكرير لما قبله لزيادة الاعتناء والاهتمام بشأنها **(وتشتغل بمحبة الله تعالى)** والمحبة وإن كانت من عطية الرب لكن حصولها من جهة العبد بترك ملاحظة غير الله تعالى بأن يخلو القلب عن كل شيء غيره تعالى، فإذا تفكر اسمه في القلب وارتسخ ذلك ودام يحصل لذة تنقطع جميع اللذات عندها ولا يتعلق القلب بالغير وإن تكلف أن يخطر الغير لا يمكن ذلك، فهذا غاية طريق المتصوفة.

وعن سيد الطائفة جنيد قدّس الله سره العزيز: إن حصول المحبة له تعالى والتبتل إليه بشرائط دوام الوضوء ودوام الخلوة ودوام الصوم ودوام السكوت لأن التكلم بغير الذكر يطفىء أنوار الذكر ودوام الذكر وربط القلب. والسابع نفي الخاطر خيراً كان أو شراً فإن لم يمنع خواطر غيره تعالى يكون سوء أدب مع الله تعالى فيعاقب بوساوس النفس والخواطر الشيطانية ويذهب حلاوة الذكر بل ربما يأتي النفرة عن الذكر والاستئناس مع الخلق فيظهر ولاية الشيطان وسلطنته ويتصرف الشيطان حيث شاء.

وعبادته، والاتصاف بالأوصاف الحسنة، ولا يمر على عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه.

أيها الولد: اسمع مني كلاماً آخر وتفكر فيه حتى تجد

(وعبادته والاتصاف بالأوصاف الحسنة) لعل ذلك إما بالأعمال الصالحة والأخلاق المرضية فعلى التقديرين هو كالتأكيد لما قبله للتثبيت وزيادة التقرير، وما في حاشية شيخ زاده روي أنه حين أخبر النبي ﷺ بموت رجل، بعد ساعة اضطرب الرجل فسأل منه عليه الصلاة السلام: أوفق العمل في هذه الساعة، فقال عليه الصلاة والسلام: اشتغل بالعلم. قال الراوي: فلو كان شيء أفضل من العلم لأمره النبي عليه الصلاة والسلام بذلك في تلك الساعة، فلعل ذلك الرجل عامي محض فالأفضل في حقه هو العلم سيما المتعلق بتفاصيل المعاد بل المبدأ وما ذكره المصنف بالنسبة إلى الخواص وإلا فإن صحت هذه الرواية فلا شك أنه يكون ما ذكره رأياً في مقابلة النص. **(ولا يمر على عبد يوم وليلة إلا ويمكن أن يكون موته فيه)** فاللائق عليه أن لا يشتغل في جميع الأوقات غير ما ذكرنا إذ الموت في كل يوم وليلة مقرر، وساداتنا النقشبندية قدس الله أسرارهم يأمرون بأن يجعل كل نفس آخر نفس كأنه يختم عمره بذلك النفس كي لا يذهل بغيره تعالى بل يستغرق ويستهلك بمطالعته فإنه سيلاقيه، وأن المؤمن محب لله تعالى فهل يليق للمحب أن يذكر غير محبوبه ويخطر غيره.

أيها الولد: ما بعد هذا من تتمة ما قبله يدل عليه قوله الآتي: والرابع، لكن فصل ذلك بهذا القول إشارة إلى زيادة الاعتناء والاهتمام وجه اتصاله إلى ما قبله أن حاصله تثبيت مراقبة القلب وتوضيحه بالتنظير **(اسمع مني كلاماً آخر)** يتضح به ويتبين منه ما هو المقصود عما قبله **(وتفكر فيه)** بالنظر والاعتبار والعناية والاستدلال **(حتى تجد خلاصاً)** عن النار في تلك الدار أو عن اشتغال القلب بل جميع الجوارح عما لا يليق به تعالى في هذه الدار. وهذا الكلام هو **(لو أنك**

أخبرت أن السلطان بعد أسبوع يجيئك زائراً، فأنا أعلم أنك في تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح ما علمت إن نظر السلطان سيقع عليه من الثياب والبدن والدار والفروش وغيرها.

والدار والفروش وغيرها.

والآن تفكّر إلى ما أشرت به فإنك فهم والكلام الفرد يكفي الكيس. قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم». وإن أردت علم أحوال القلب فانظر إلى «الإحياء» وغيره من مصنفاتي.

أخبرت) بصيغة المجهول (**أن السلطان بعد أسبوع يجيئك زائراً**) لزيارة (**فأنا أعلم**) وأتيقن (**أنك في تلك المدة لا تشتغل إلا بإصلاح ما علمت إن نظر السلطان سيقع عليه من الثياب**) فتلبس جيدها وأحسنها (**والبدن**) فتظهره من جنس الخبث والوسخ (**والدار**) فتهيّيء أحسنها (**والفروش**) فتبسط أجملها (**وغيرها**) مما يكون مرغوباً ومرضياً عند السلطان، هذا هو التنظير.

فالمقصود قوله: (**والآن**) أي في هذه الساعة (**تفكّر**) واستدل (**إلى ما أشرت به**) بالخطاب وصيغة المفعول من نحو مراقبة القلب الذي هو المقصود في الباب، يعني اشتغلت إلى ما يتعلق إليه نظر السلطان في تلك الحالة فأولى لك أن تشتغل إلى إصلاح ما يتعلق إليه نظر الله تعالى وهو القلب، ويمكن أن يعم إلى سائر محال العبادات بأنواعها وأوصافها (**فإنك فهم**) أي فاهم وفهيم (**والكلام الفرد**) أي القليل (**يكفي الكيس**) الذي يستدل بما ألقى على ما أبقى على خلاف الغبي والأحمق (**قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم**) أي صورة أعمالكم إذ الأعمال بلا نية حميدة ليست بمرضية إذ الأعمال بالنيات التي في القلب كما يشير إليه (**ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم». وإن أردت علم أحوال القلب فانظر إلى «الإحياء» وغيره من مصنفاتي**) فإنه يقتضي بسطاً وتفصيلاً لا تتحمله هذه الكراسة.

وهذا العلم فرض عين وغيره فرض كفاية إلا مقدار ما يؤدي فرائض الله تعالى من الوضوء والصلاة وغيرها.

والرابع: أن لا تجمع من الدنيا أكثر لأجل العيال من كفاية سنة كما كان رسول الله ﷺ يعد لبعض حجراته وقال: «اللهم اجعل قوت آل محمد. . .

(**وهذا العلم**) أي علم أحوال القلب (**فرض عين**) إذ المقصود من شرعيته ليس مجرد الحصول بل المقصود هو الحصول من إفراد كل أحد على الخصوص (**وغيره فرض كفاية**) الظاهر المراد من الغير الفقه ونحوه كما ذكر، والمراد من كونه فرض كفاية ما يكون زائداً على حاجة كل أحد في نفسه وهو المعبر عنه بعلم الحال وإلا فقد عرفت أن ما يتوقف عليه الأعمال الظاهرة كالصلاة والصوم فرض عين كما يدل عليه قوله: (**إلا مقدار ما يؤدي فرائض الله تعالى من الوضوء والصلاة وغيرها**) وكذا واجباته تعالى. وقد قيل: العلم تابع للمعلوم، يعني علم الفرائض فرض وعلم الواجبات واجب، والأولى أن يشير إليه الآن يحمل على المقايسة أو الاكتفاء.

(**والرابع**) من التي ينبغي لك أن تفعلها (**أن لا تجمع من الدنيا أكثر لأجل العيال من كفاية سنة**) لنفسك ولمن مؤنته ونفقته عليك لأنه تضييع وقت ومانع توكل، فلذا قال بعض الفقهاء: إن كفاية سنة من الحوائج الأصلية لا يعتبر في الغناء كما في الطريقة. قال محشيه خواجه زاده: حتى لو كان قيمة ذلك مقدار النصاب لا يجب عليه الأضحية وصدقة الفطر ونفقة الأقارب، ويجوز له أخذ زكاة الغير والنذر والوصية المطلقة وغير ذلك من الفروع.

ثم قال في الطريقة: إن ما زاد على قوت سنة يعتبر في الغناء وأما من لا عيال له فله أن يدخر قوت أربعين يوماً وإن ادخر زائداً عليه خرج من التوكل، أي الكامل.

(**كما كان رسول الله ﷺ يعد**) أي يهيّىء (**لبعض حجراته وقال: «اللهم اجعل قوت آل محمد**) الظاهر من الآل هنا هو أهل البيت رضي الله

كفافاً».

ولم يكن يعد ذلك لجميع حجراته بل كان عليه الصلاة والسلام يعد ذلك لمن علم أن في قلبها ضعفاً، وأما من كانت صاحبة يقين ما كان يعد لها إلا قوت يوم أو نصفه.

أيها الولد: إني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك فينبغي لك أن تعمل بها فلا تنسني من أن تذكرني في صالح دعواتك، وأما الدعاء الذي سألت مني فاطلبه من دعوات الصحاح..................

تعالى عنهم أجمعين (**كفافاً**») على قدر كاف، يعني لا زيادة مانعة ولا نقصاً مخلاً كما في الحديث: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع**».

(و) مع ذلك (**لم يكن يعد ذلك**) أي قدر كفاية سنة (**لجميع حجراته بل كان عليه الصلاة والسلام يعد ذلك**) المقدار (**لمن**) لزوجته (**علم**) عليه الصلاة والسلام (**أن في قلبها ضعفاً**) لابتداء إسلامها أو لكونها من عوام أصحابه (**وأما من كانت صاحبة يقين**) وتوكل تام (**ما كان يعد لها إلا قوت يوم أو نصفه**) لعدم تعلق قلبها وعدم اضطرابها لعدمه بل تقنع بقوت يوم كما تقنع بقوت نصف يوم.

لما فرغ عن النصائح أراد أن يذكر الدعاء الذي يقرأ في الأوقات التي سبق الإشارة إليها، فقال:

أيها الولد: (**إني كتبت في هذا الفصل ملتمساتك**) كلها (**فينبغي لك أن تعمل بها**) يعني قد فعلنا ما يكون منا فافعل أنت ما يكون منك (**فلا تنسني من أن تذكرني في صالح دعواتك**) أي في دعواتك الصالحات لأن شكر المنعم على المنعم عليه واجب (**وأما الدعاء الذي سألت مني فاطلبه من دعوات**) الأحاديث (**الصحاح**) فإن أفضل الأدعية وأولاها على الإطلاق ما أخذ عنه عليه الصلاة والسلام بالإجماع والاتفاق فإنه العارف خواص الأدعية واللائق بحال الداعي ولأي شيء يدعي وبأي لفظ يعبر وبأي نظم يعقد ويقرر وإنه ﷺ لم يترك خصالاً

واقرأ هذا الدعاء في جميع أوقاتك خصوصاً في أعقاب صلواتك:

واقرأ هذا الدعاء في جميع أوقاتك خصوصاً في أعقاب صلواتك.

حميدة ولا خلة سعيدة إلا طلبها من مولاه بداية ونهاية إجمالاً وتفصيلاً. **(واقرأ هذا الدعاء في جميع أوقاتك)** سيما الأوقات التي وردت استجابة الدعوات فيها كليلة القدر ويوم عرفة وشهر رمضان وليلة الجمعة ويومها وجوف الليالي **(خصوصاً في أعقاب صلواتك)** الخمس أو مطلق الصلاة كالجمعة والعيد والنوافل. قال السيوطي في رسالته المخصوصة بالدعاء: أخرج ابن عساكر عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كانت له إلى الله تعالى حاجة فليدع بها دبر صلاة مفروضة»**. وأخرج أبو بكر بن أبيض أن رسول الله ﷺ قال: **«من صلى صلاة فريضة فله دعوة مستجابة»**.

ثم إنه يحتمل أن يكون هذا الدعاء من جملة الأحاديث الصحاح كما في بعض المواضع على أن يكون رواية عائشة رضي الله عنها وعن أبويها فح يكون قريباً أن يكون من عطف الخاص على العام، فوجه الخصوص اشتماله بجميع المهمات الدينية والحاجات الأخروية على أبلغ وجه وأعذب لفظ وأفصح تعبير وآكد تقرير سواء كانت مما تعلق بجلب نفع أو دفع ضرر، ويحتمل أن لا يكون كذلك لكن ح وإن كان معناه أشمل على جميع لطائف المهمات لكن الأولى في الاختيار أن يكون بلفظ الحديث إذ لا يمكن أن يعادل ما نظمه الغير بما نظمه النبي ﷺ إذ هو العارف بما يليق أن يدعى به أو عنه وإن في الحديث فضيلتين فضيلة الدعاء وفضيلة الحديثية كما بلفظ القرآن، فلعل المصنف وصل إليه كونه حديثاً فلذا اختاره كما يتبادر من كلامه. ثم اعلم أنه قيل: يشترط في حصول الثواب معرفة معاني الأدعية، اختاره الإمام الغيطي. وقال ابن حجر الهيتمي: لا يثاب بلا فهم المعاني ولو بوجه بخلاف القرآن للعبد بلفظه الشريف وأورد عليه أن ذلك محتاج إلى النقل بل القياس عدم الفرق بين القرآن وغيره وإن كان متفاوتاً. ثم قيل: وعليه عمل الصلحاء من جعل الأدعية والأذكار أوراداً يواظبون عليها وما حسن عند المسلمين فهو عند الله حسن وفضل الله واسع، انتهى.

لا يخفى أنه يرد عليه إن كان الصلحاء من العلماء فلا جرم أنهم عالمون معاني الأذكار وإلا فلا يصلح الاحتجاج بعملهم وما يكون حسناً عند الله تعالى ما حسن عظماء العلماء إلا أن يقال إنهم لكونهم صلحاء لا يواظبون على ما لم يصل إليهم صحته وثبوته، فلعلهم وصل إليهم ذلك. وبالجملة إن فضل الله تعالى واسع فافهم والسابق إلى الخاطر أن فهم معنى الدعاء والذكر أولى وأفيد وأقرب إلى الخضوع بلا لزوم، وعليه حمل علي القاري قول الحصن الحصين يتدبر ما يقول ويتعقل معناه وإن جهل شيئاً تبينه. ثم السابق إلى الخاطر أن من لم يعرف معنى الأدعية المأثورة لا يتركها لعدم علمها وأما غيرها فلعل الأولى أن يدعو بما يعرفها ولو بغير لفظ عربي. بقي أن من آداب الدعاء بسطه كفيه رافعاً حذاء صدره وبينهما فرجة كما في «كبير الحلبي» وضم اليدين وتوجيه أصابعهما مع انضمامها نحو القبلة كما في «شرح الحصن» لعلي القاري. فبينهما مخالفة إلا أنه يحمل على جوازهما أو يراد من الضم الضم في مجرد الرفع والبسط وينظر عند الدعاء بين يديه كما نقل عن «الحقائق». ومما ينبغي أن ينبه عليه هنا أن الدعاء هو العبادة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: الآية 60] الآية، وفي الحديث: «**ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء**» لأنه عبادة وإخلاص وحمد وشكر وسؤال وتوحيد ورغبة ومناجاة وتضرع وتذلل واستكانة واستغاثة ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وكمال عجز العبد.

ثم إنه أشكل على هذا الحديث بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: الآية 13] ودفع بأن المراد من الحديث ليس شيء من أنواع العبادات القولية فإن الصلاة أفضل العبادات البدنية. أقول: هذا تخصيص بلا مخصص ولا داع بل الظاهر أن الدعاء من أفراد التقى لكن يشكل بهذا الحديث على قولهم: إن الذكر أفضل وأكمل من الدعاء محتجاً بقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: الآية 45] إذ ما لا يكون أكرم لا يكون أكبر.

اللَّهم إني أسألك من النعمة تمامها، ومن العصمة دوامها، ومن الرحمة شمولها، ومن العافية حصولها، ....

(اللهم إني أسألك من النعمة تمامها) أخروية أو دنيوية، لعل المراد من تمام النعمة الدنياوية ما يكون وسيلة إلى النعم الأخروية ومداراً عليها والتوفيق على الطاعة يحتمل أن يعد من كل منهما بجهتين ولعل منها أيضاً الشكر على النعمة إذ لا شك أن الشكر متمم للنعمة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية 7]. وأعظم النعم الإسلام وأدناها توفيق وتسبيح وعصمة عن كل كلمة لا تغنيك، كذا قال المصنف في «المنهاج».

(ومن العصمة) أي الوقاية والحفظ عن كل سوء ومكروه سيما حفظ الدين وسلامته **(دوامها)** بأن لا يزول ولا يزيغ أبداً سيما عند قبض الروح بالنسبة إلى الإيمان **(ومن الرحمة شمولها)** بجميع الخير والبر الديني والدنيوي الأنفسي والآفاقي **(ومن العافية حصولها)** أي وجودها في الحديث: «**سلوا الله العفو والعافية فإن أحداً لم يعد بعد اليقين خيراً من العافية**»، وفي آخر: «**ما سأل العباد شيئاً أفضل من أن يغفر لهم ويعافيهم**». قال في «الحصن» إنه قال العباس رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله علِّمني بشيء أدعو الله به، فقال: سل ربك العافية، قال: فمكثت أياماً ثم جئت فقلت: يا رسول الله علمني شيئاً أسأله ربي عزَّ وجل، فقال: يا عم سل العافية. ثم عن الطبراني قال: فلينظر العاقل مقدار هذه الكلمة التي اختارها ﷺ لعمه من دون الكلم إلخ.

ثم قال: فلقد تواتر عنه عليه الصلاة والسلام الدعاء بالعافية وورد عنه لفظاً ومعنى في خمسين طريقاً، هذا وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو المعصوم على الإطلاق فكيف بنا ونحن عرض لسهام القدر وعرض بين سهام النفس والهوى والشيطان كما ورد في الخبر: اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

ومن العيش أرغده، ومن العمر أسعده، ومن الإحسان أتمّه، ومن الإنعام أعمّه، ومن الفضل أعذبه، ومن اللطف.....................

قيل عن النبي ﷺ: «العافية عشرة، خمسة في الدنيا: العلم والعبادة والرزق الحلال والصبر على الشدة والشكر على النعمة. وخمسة في الآخرة: يأتيه ملك الموت بلطف ورحمة، ولا يروعه منكر ونكير في القبر، ويكون آمناً من الفزع الأكبر، ويمحو سيئاته وأن تكون حسناته مقبولة ويمر على الصراط كالبرق الخاطف، ودخول الجنة مع السلامة».

(ومن العيش) ما يعاش به **(أرغده)** الرغد سعة العيش. يقال: عيشة رغد أي واسعة طيبة، وقد يقال زيادة المال بلا زحمة **(ومن العمر أسعده)** لعل سعادته ما كان مصروفاً على طاعة الله ومنهياً عن جميع ما كره إلى الله تعالى **(ومن الإحسان أتمه)** لعل الإحسان هو الحسنة التي عدت من جوامع الكلم وكان أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام به بقوله: «**اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**» كما في «الحزب الأعظم» وفي كتاب «البركة» كان أكثر دعائه عليه الصلاة والسلام به وإن إنساناً لا يدعو بدعاء إلا جعلها فيه.

وفي بعض المواضع عن تفسير الحدادي: أن الحسنات عشر، خمسٌ في الدنيا: علم الدين والعمل الصالح وأكل الحلال والزوجة الصالحة والمسكن الذي يسكن فيه. وخمسٌ في الآخرة: قبول الطاعات وغفران السيئات وإرضاء الخصوم ونجاة من النيران ودخول الجنة. فلعل تمام الحسنة هو حصول هذه العشر. **(ومن الإنعام أتمّه)** ما يكون دينياً بجميع الأنواع ودنيوياً كذلك من النفساني وصفاتها والأولادي والأهلي والأموالي مع أحوالها ولواحقها **(ومن الفضل)** ضد النقص كما في «القاموس»، لعل المراد النعم المتكثرة **(أعذبه)** العذب الحلو، لعل عذب الفضل هنا النعم التي يراعى حقها ويؤدى شكرها ويتقوى بها على الطاعة ويتوسل بها إلى وجوه البر بلا تسبب إلى النقمة ولا تطرق حسرة وندامة **(ومن اللطف)** قال في «القاموس»: لطف لطفاً رفق واللطيف البر

أنفعه.

اللهمَّ كن لنا ولا تكن علينا، اللهم اختم بالسعادة آجالنا، وحقِّق بالزيادة آمالنا، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا، وصب سجال عفوك على ذنوبنا، . . . .

بعباده المحسن إلى خلقه بإيصال المنافع إليهم برفق ولطف. ثم قال: واللطف بالضم التوفيق فالمقام صالح للكل لكن الأقرب أن يكون اللطف المفهوم من اللطيف (**أنفعه**) وكونه أنفع دائماً وكاملاً يؤدي حقه ويعلم قدره بالشكر والحمد.

(**اللهم كن لنا**) لنفعنا يعني افعل بنا ما ينفعنا (**ولا تكن علينا**) أي على ضرنا، يعني لا تفعل بنا ما يضرنا في جميع الأمور في البدايات والنهايات في الديانات والمعاملات وفي الأفعال والأقوال والاعتقاديات لا سيما في الأخرويات، وتوسيط لفظ اللهم لكونه نوعاً آخر من المقاصد ولكونه جامعاً بجميع المرادات والحاجات كما أعاده في قوله: (**اللهم اختم بالسعادة آجالنا**) لكونه من أقصد المقاصد وأجل المآرب بل هو نتيجة جميع المطالب وثمرة جميع العبادات والمقاصد سعده سعادة لا يتصور بعدها شقاوة، رزقنا الله تعالى، وشقاوته شقاوة لا يتصور بعدها سعادة فسعده سعادة لا يوازنه سعادة وشقاوته شقاوة لا يحاذيه شقاوة، أعاذنا الله تعالى بلطفه وكرمه (**وحقِّق**) أي اعط جميع ما سألناه إعطاء محققاً ملابساً (**بالزيادة آمالنا**) أي اعط جميع مأمولاتنا وكل ما سألنا مع زيادة ما أملنا ورجونا بما لم يسبق إليه خواطرنا ولم يسمعه آذاننا كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: الآية 26]، (**واقرن بالعافية غدونا وآصالنا**) أي نهارنا وليالينا، أعاد الدعاء بالعافية بعدما ذكر سابقاً لزيادة شرفها واهتمامها كما سبق (**واجعل إلى رحمتك مصيرنا**) مرجعنا، فقوله: (**ومآلنا**) كعطف تفسير له. قال في «القاموس»: آل إليه أولاً ومآلاً إذا رجع. الظاهر اجعل انتقالنا من هذه الرحمة إلى الدار انتقالاً من السجن إلى الجنة ومن العقوبة إلى الراحة ومن الزحمة إلى السلامة (**وصب سجال عفوك على ذنوبنا**)

ومنَّ علينا بإصلاح عيوبنا، واجعل التقوى زادنا، وفي دينك اجتهادنا، وعليك توكلنا واعتمادنا، وثبتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخفف عنا ثقل الأوزار وارزقنا عيشة الأبرار، . . . .

جمع سجل، قال في «القاموس»: السجل الدلو العظيم مملوءة مذكر وملأ الدلو والرجل الجواد والضرع العظيم فتطهير الذنوب بالعفو كتطهير النجس والوسخ بالماء المصاب بالكثرة، فالمقصود طلب مبالغة العفو والغفران **(ومنَّ علينا بإصلاح عيوبنا)** الظاهر أنه من المن بمعنى الإحسان، لعل المراد من إصلاح العيوب سترها وعفوها **(واجعل التقوى زادنا)** ذخرنا في سفرنا من الدنيا إلى الآخرة. وقد عرفت فضائل التقوى ونقل عن المص أيضاً أن خيرات الدنيا جمعت تحت هذه الخصلة الواحدة وكل خير وسعادة في الدارين تحت هذه اللفظة إذ هي كنز عزيز عظيم وعلو نفيس وخير كثير ورزق كريم وفوز كبير وملك فلا تنس نصيبك من الدنيا. قال بعض العارفين لشيخه: أوصني، فقال: أوصيك بوصية رب العالمين للأولين والآخرين ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النِّساء: الآية 131] الآية كما عرفت سابقاً **(وفي دينك اجتهادنا)** يعني اجعل سعينا ومجاهدتنا وجدنا في طاعتك ورضاك **(وعليك توكلنا)** الظاهر بنصب معمول لاجعل كما يؤيده قوله: **(واعتمادنا)** دون اعتمدنا وقد عرفت سابقاً معنى التوكل **(وثبتنا)** من التثبيت والتقرير **(على نهج)** طريق **(الاستقامة)** وقد عرفت أيضاً معنى الاستقامة **(وأعذنا)** من العصمة والحفظ أي اعصمنا **(في الدنيا من موجبات الندامة)** من فعل المنكرات وترك المأمورات وخلو الأوقات مما يهيىء به إلى الملاقاة كما في الحديث: «**ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم ولم يذكروا الله تعالى فيها**» **(يوم القيامة)** لما يرى من العذاب والعقوبات والعتاب وحرمان الشفاعة ولعدم نيل ما نال به الصدِّيقون والسابقون بمجاهداتهم ومسارعاتهم في الدنيا **(وخفف عنا)** كناية عن الإعدام والإزالة **(ثقل الأوزار)** أي الأوزار كالأحمال الثقيلة التي شأنها إهلاك حامليها وإتلافهم **(وارزقنا عيشة الأبرار)** من التوكل وترك الحرص والطمع وترك ميولات الدنيا وعدم ميول النفس الشهوانية

واكفنا واصرف عنا شر الأشرار، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وعشيرتنا من عذاب القبر ومن النيران برحمتك يا عزيز يا غفاريا كريم، يا ستار، يا حليم، يا جبار، يا الله يا الله يا الله، يا رحمٰن الدنيا ورحيم الآخرة برحمتك يا أرحم الراحمين.

والله الموفق

وحفظ الأوقات بالطاعات وجعل الغذاء واللذة والراحة بالأذكار وأنواع العبادات (**واكفنا**) الكف المنع (**واصرف عنا**) ارفع عنا (**شر الأشرار**) من الشيطان وشقاوة الإنسان (**واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وعشيرتنا من عذاب القبر ومن النيران**) كأن النفوس العصاة كرقاق النار لكون سعيهم وخدمتهم لها. فالمراد إما الحفظ في الدنيا من الاشتغال بما يوجب النار أو العفو في الآخرة قبل مقاساة حرارة النار. وقيل: الدخول تحت ولايتها وتصرفها (**يا عزيز يا غفار**) يعني اعط جميع ما سألناك بسبب رحمتك وكمال شفقتك ورفقك لا باستحقاقنا.

والأدب في الدعاء أن يوصف الله تعالى بأوصاف مناسبة لما دعي به، فإتيان الأوصاف لهذا الأدب ثم النسخ هنا مختلفة ففي أكثرها هكذا: (**يا كريم، يا ستار، يا حليم، يا جبار، يا الله يا الله يا الله، يا رحمٰن الدنيا ورحيم الآخرة برحمتك يا أرحم الراحمين**) الأَوْلَى أن يكرِّر هذا لما في «الحصن» عن الطبراني: إن لله ملكاً موكلاً لمن يقول: يا أرحم الراحمين فمن قالها ثلاثاً قال له الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فاسأل.

(**والله الموفق**) تمَّ الشرح بالكلام بعون الله الملك المنعام من قلم من أخرج من البياض إلى السواد بعون من هو يسهِّل الأمور ويعطي المراد عسى الله أن يجعله ذخراً وافياً وسعياً مشكوراً مقبولاً كافياً، في سنة إحدى وسبعين ومائة وألف من هجرة من له غاية العز والشرف صلى الله تعالى عليه

. . . .

وسلم تسليماً كثيراً مع أصحابه وجميع آله وأحبابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

آمين

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات